الشيخ فؤاد حبيش

١٩٠٤ ــ ١٩٧٣

بقلم فوزي سابا

* * *

ولد الشيخ فؤاد حبيش في غزير قاعدة مقاطعة فتوح كسروان سنة ١٩٠٤ ، تلقى مبادىء القراءة والكتابة في مدرسة المزار في بلدته ثم في مدرسة الحكمة في بيروت، ولنتركه يحدثنا عن هذه الحقبة من حياته .

« كنت صيف ١٩١٩ اقطن جونيه وأتأهب للسفر الى القطر المصري . استدعاني اليه ابناء عمومتي يريدون ان اتابع دروسي في احدى مدارس القاهرة على مقربة منهم بعدما اغلقت الحرب العالمية ابواب المدارس في لبنان ،وكنت قد نسيت خلالها ما تعلمته قبلها في مدرسة ــ الحكمة ــ ولم يكن ما تعلمته يومئذ بالشيء المذكور ،يكاد يقتصر على المبادىء الاولية في القراءة والكتابة والحساب وامضيت سنوات الحرب الاربع لا افتح كتابا بالرغم من الحاح والدتي علي بالمطالعة ،ولا اعير العلم اي اهتمام ،منصرفا الى الوان من اللهو البريء شأن عدد غير قليل من رفاقي وابناء جيلي. فاجأتهم الحرب وهم على مقاعد الدراسة ،فاضطروا الى هجرها والاستعاضة عنها بما يسميه الفرنجة « مدرسة الحقل » .وكانت مدرسة حقلنا في جونيه قهوة السراي وغرفها الخاصة ، تتعاطى بين جدرانها الميسر... وفي زاويتها البحرية بلياردو عتيق نتمرن على لعبته فضلا عن لعبة الطاولة بانواعها من اليهودية الى الفرنجية الى المحبوسة الى الهب ياك الى العثمانية .

... ودارت الايام دورتها ،وعدت من مصر ،وانخرطت في سلك الجندية وامضيت ثمانية عشر شهرا في مدرسة دمشق الحربية ومثلها تقريبا في الخدمة الفعلية بين رياق وحلب وحماه، ولكن الجندية على ما بها من جواذب ومغريات عجزت عن الاستئثار بمحبتي واشباع جميع ما يخالج نفسي من رغبات . وكنت وانا في المدرسة الحربية، ثم في خارجها، لا انفك عن الكتابة في الصحف البيروتية ونشر المقالات في المجلات اللبنانية ، وكان ميلي الى احتراف الصحافة والانصراف الى الادب يقوى يوما بعد يوم حتى استهوتني الحرفة ،وقدر لي سنة ١٩٢٧ ان اخلف الشيخ ادوار الدحداح في رئاسة تحرير جريدة «الراية» لصاحبها المحامي يوسف السودا ... » .

هذا ما كتبه الشيخ فؤاد حبيش عن نفسه ،وفي كثير من التواضع لا سيما عن تحصيله العلمي سواء اكان من خلال المدرسة او من خلال المطالعة ،اما انا فما حاولت مرة الرواح الى تقييمه الا اخذتني الحيرة ايا من النواحي اتناول !فؤاد حبيش الناقد ،ام الاديب ام العالم ،ام الناثر ام السياسي ام الاجتماعي ام المؤرخ ام المحدث ام ام ...

حتى اذا ما اخترت ناحية وخرجت منها على اقتناع بأني قد امتلكتها وجدت انني ما زلت على ابتداء معها ،انه امر الباحثين في تداولهم امثال الشيخ فؤاد حبيش من اصحاب الامزجة الفنية .الذين يتعاطفون مع قول فرنسيس الاسيزي «هم العاصفة لا يعلم توقيت منطلقها ولا استقرارها تهب وكأنها لا هبوب وتهدأ وكأنما لا هدوء وتتجه على استقرار وتستقر على انطلاق » .

عندما التقيته وكان ذلك في حدود الثلاثينات من اوائل القرن العشرين كان قد نزع عنه ثوب الجندية ،وجاء بيروت ،وكل عدته ايمان بنفسه لكأنما ما كتبه عن الياس ابو شبكه هو احساسه الذاتي بما كان هو عليه ولا يبقى للقارىء الا استبدال اسم باسم لنسمعه يقول ...

«... فانت ترى ان ــ الياس ابو شبكه لم يكن قديسا بالمعنى الرهباني الاصيل ،ما نذر العفة ،ولا كبح مطالب الجسد ،ولا اثر التحرق عملا بوصية بولس الرسول .كان عاطفيا متدفق العاطفة مشتعلها . وحساسا رهيف الحس دقيقه احب وشقي وتألم كما يحب كل انسان ويشقى ويتألم تارة على شكل خاص به دون سواه ،وتارة اخرى على اشكال تلاقى فيها وسائر المخلوقات البشرية .فكان حتما عليه ان يتعرض للزلل او يتشوق الى الكمال كما يتشوق كل ادمي الى هذا ويتعرض لذلك ...»

لما التقيته في دار شقيقته تأكد لي انه يجمع في ذاته ما يقصر كاهله عن حمله فيحاور ، ويحول هذا العبء عن كاهل الى اخر ،وكما حدث شكسبير عن ان هملت تظاهر بالجنون اخفاء لمقاصده صح في الشيخ فؤاد حبيش تظاهره بالمجالس الهازئة ،وفي رسائله العارية وكتابه «رسول العري» انما الفارق بينه وبين هملت انه انفلت من التأثيرات الخارجية ثم انطلق ،وكان انطلاقه هذا فاتحة لنهضة ادبية عمت العالم العربي على صفحات «المكشوف» ،ومنشورات « دار المكشوف » .

قلة هم الذين يعرفون لماذا ترك الشيخ فؤاد حبيش بعدما كان قد اصبح ضابطا مرموقا ذا مركز حساس وكلمة نافذة سواء مع الفرنسيين او مع الوطنيين. ترك فؤاد حبيش الجيش لانه كان محبا وفيا لامه وشقيقاته فقد كان وحيدا بين ثلاث شقيقات ،فهو المدلل الصغير ،مدلل من الام ومن الشقيقات ،فلما التحق بالجيش وكانت البلاد اشبه بمرجل يغلي بالثورات خافت الام على وحيدها والشقيقات على الشقيق المدلل ــ عمود البيت ــ فما زلن عليه حتى استقال من الجندية ،رحمة بقلب الام وعطفا على الشقيقات اللواتي بقي يعطف عليهن حتى ساعاته الاخيرة .

اما كيف ، فانه عاد خالي الوفاض لا يملك فلسا ،

وكان اثرى شأن سواه لو اراد ،ولسنا لنذيع سرا اذا قلنا انه قضى السنوات يسكن عند احدى شقيقاته ،وانه عندما فكر بانشاء مجلة « المكشوف » استدان عشر ليرات ذهبية كانت هي كل راسماله لهذه الدار دار المكشوف التي فتحت نهجا مفردا في النقد والادب واطلعت نهضة متى يرجع اليها في مجال النهضات الادبية في شرقنا العربي يتقدم بها لبنان مفاخرا . .

هذه خصوصيات عن فؤاد حبيش ما كنا نتحدث عنها لو لم نكن على تقييم هذا الرجل الذي حق فيه القول :

اذا كنت من كل الطباع مكونـا   فانت الى كل القلـوب حبيب

هذا الشاب الذي ابوه اديب ومؤلف وعمه كذلك،ومن يجهل منزلة ال حبيش في تكوين لبنان ،وهو المدلل الغنج ، وهو ايضا الذي حاز مرتبة في الجيش يحسد عليها ،يصبح بين ليلة وضحاها مفلسا ،ويبقى على سجاياه ،مرحا مالئا مجالسه بالادب وبالنكتـة التي مهما لذعت تستطـاب وتستحلى ، وعشيرا لا تمل عشرتـه علـى ابعد مما عناه الشاعر :

ورفيق يمشي يرافقك الفجـر   الى ساعتين بعـد الغـروب
ارفـع اليوم قبعتي واحييـك   وان كنت في سمـاء الغيـوب

ولدى ذكرى فؤاد حبيش نرفع الراس عاليا تحيـة واعتزازا .

ثم وقد عاد اليه الدهر .ولا عجب فطاقاته شملت جميع نواحي الاعمال التي اقدم عليها . فكما كان له اكتشاف الكتاب وجمعهم في « دار المكشوف » ثم تحويلهم الى اعلام فكر وادب وصحافـة يفخر بهم لبنان ،كان لـه اكتشاف صناعة الكتاب ،التي جعلت « دار المكشوف » للنشر قدوة يسعد كل مؤلف متى فتح له ان يوسم انتاجه باسمها .

ونبقى على الخصوصيات لانها الينبوع الذي تستقى منه العموميات ففؤاد حبيش ما تنكر في جميع اطوار حياته لانسان ، واعلم، واني لخبير باعماله، فلكم اعطى واجزل وكم تغاضى فسامح وعلم وثقف ،صحح وهدى الى الصحيح ، وانكر على نفسه هذه الاعمال ونسبها الى سواه ، وعندما كان لا يجد لها سبيلا للرواح عن اسمه استعار لها الاسماء من امثال « جوابه» و « زهير »...

انما كان هناك امر لا يتسامح عنه ، الكتاب فمعـه لا رحمة ولا صداقة ولا اخوة ،كان يقول لي الكتاب روح فلا افسدها ،فالكتاب لو جاء من جاحظ القرن العشرين مارون عبود ،او من اكبر مستشرقي اوروبا ،لا يستطيع ان يحمل شعار « دار المكشوف » الا بعد ان يمر غير مرة على مطهر فؤاد حبيش ،حتى في طباعة الكتاب اوجد طريقة خاصة به هي افضل ما يكون للعين راحـة وللجمال نموذجا ،وقـد يقرب قول جورج مصروعه ،الذي عمل معه اعواما واعواما الى تصوير اقتدار الشيخ فؤاد حبيش في هذه الناحية :

«...يرى الغلطة اللغوية لطخـة في ثوب عروس ، فيصيح ،كيف يكون الفكر جميلا اذا كان التعبير عنه دميما؟ المبنى والمعنى صنوان متضامنان . فاذا انسجما كان الابداع. والا فهات منجلك وشذب ...

قلمه الاحمر ،او الاخضر ،دائم اليقظة .يصحح بـه مـايقرأ بشغف واهتمام .يدقق في الفواصـل ،والنقط والحركات .يبدل كلمـة باخرى لتفادي التكرار اللفظي ، او لتوضيح الفكرة او لتحسين موسيقى الجملة. واذا لم يجد ما يصحح ،خربش شيئا ما ،ثم محاه وكتب حوله : صح ، صح ، صح .. لا يغفل عن حرف مكسور، او شدة في غير مكانها ، او فاصلة تحتل مرتبة نقطة ».

هذه الدقـة في العمل لم تقتصر علـى نشر الكتاب وطباعته ولا على تصحيح مسوداته ومقالات الادباء الناشئين والمبرزين، انها في انتاجه الادبي ايضا فما كتب الا وصور ورسم معطيا القارىء كل ما يريده من الموضوع الذي هـو عليه نسمعه يكتب عن ميشال زكور :

«...لا يحتويه مكتبه في النهار الا ساعات متقطعـة قصيرة ، فهو يكاد لا يدخله ويرمي نظرة سريعة على بريده الخاص حتى يتركه ويمضي ثم يعود ثم يمضي ،ولا يستقر على مكتبه في هدوء الا في المساء .فيجلس من الساعـة السابعة ليلا الى التاسعة يتصفح جرائد المبادلـة ويكتب رسائله ويراجع شؤونه ، ثم ينصرف بعد ذلك الى مقهى « الفونس » او «الرستوران الفرنسوي»... لا يكتب مقاله الاسبوعي الا في اخر دقيقة وبعد ان يطالبه به مرارا رئيس المنقذين او ميشال ابو شهلا او كاتب هذه السطور .ولكن اين يكتبه وكيف يكتبه ؟

يكتب مقاله هذا تارة في مكتبـه في الادارة وطورا في مكتبي الى حيث يلتجأ هربا مـن الزائرين والتماسا للهدوء والسكينة فلا تعكر عليه مجرى افكاره الضجة القائمـة في غرفة رئيس عصبة العشرة المحاذية لغرفته .

اما اذا جلس للكتابة وكان الموضوع في راسه مهيئـا فانه يتم مقاله في قليل من الوقت اذ يكتب بسرعة ولايحذف او يزيد الا نادرا .اما اذا كان الموضوع غير حاضر فيأخذ بتصوير خطوط على الورقة التي بين يديه فاذا ما انتظـم الموضوع في ذهنه اخرجه الى الورق في اسلوب خـاص لا يعتمد فيه العبارة المتينة او البلاغة الانشائية حتى ليخيل اليك في كثير من الاحيان انه يفكر بلغة اجنبية عن اللغـة التي ينشىء بها .»

ويقول في الياس ابوشبكة :

« هو كالسلحفاة مكتبه على ظهره واوراقه وقلـم حبره في جيوبه وقاموسه في راسه ووحيه في دخان نارجيلته. ولكنه ينزل على دار « المعرض » فتصبح مكاتبها وقفـا عليه وتتحول زواياها ومقاعدها الوثيرة ومناضد القهوة والمنفضة بين يديه الى مكاتب ، حتى اذا ألح عليه شيطان الشعر سند الورقة الى ركبته وراح ينشـد «غلواءه » او راوده النقد عن نفسه انتحى زاوية وما زال قابعا فيها يهمهم ، مقلبا وقبيه في حدقتيهما حتى ينجز مقاله او يحمله

الربيع

بالامس اعلن المسؤول صحوة الربيع
بداية لموسم من قبل كان اسمه الربيع
لكنني افتش السمـاء
عن رقصة الضياء
وموكب الغناء والطيور
وانبش الحقـول
عن حفنة من عابق الزهور
فالتقي في آخر الطريق
بساحة تعانق الايام بين ظلمة ونور
وجوقة في صمتها المؤرق العميق
تئن وسط فورة مكبلة
تحاول الفكاك من براثن القيود والركود
من حيث يخفت الضياء في قبو الظلام
وتختفي الحياة من مخارج الكلام

جامعة الاسكندرية — لطفي عبدالوهاب يحيى

في ملفات جيوبه ليكمله في « الزوق » او في احد مقاهي العاصمة ».

ولم تقتصر الدقة لديه على تصوير الاشخاص وطريقة عملهم، تجاوز ذلك الى النقد لنجده يقول في الياس ابو شبكة ايضا :

« وقد استرسل ابو شبكة في رومنطيقية على هذا النحو استرسالا جعل قارئيه وناقديه ، في اكثريتهم الساحقة ، يتهمونه بانه قلد هذا او ذاك او ذياك من شعراء الفرنسيس ، حتى انهم جمعوا النقيضين في اتهامه حين زعموا انه تتلمذ لالفريد دي موسه كما تتلمذ لشارل بودلير . ولو كان ابو شبكه ينزع بفطرته الى التقليد او المحاكاة ، لكان من حق موليير قبل سواه ان يطبعه بطابعه ويمهره بخاتمه . فقد عاشر ابو شبكه هذا الشاعر معاشرة طويلة ، وصاحبه وخالطه وترجم عددا من تمثيلياته . ومع ذلك فانه لم يتأثر به في قليل او كثير ، على ميله الى النكتة والفكاهة وتذوقه الرفيع منها . على انه حاولها في نثره مرات ولكن على تفاوت في التوفيق ... »

وبعد من يسأل عن الفنون الادبية التي طرقها الشيخ فؤاد حبيش . وقد عاش عمره بين الكتب والجرائد والمجلات منشأ ومحررا وناشرا ، فهو صحفي وقد تخرج عليه غير واحد ممن سمقوا في عالم الصحافة ، ام هو الاديب ، وانتاجه كله حجة دامغة على سمو مرتبته الادبية، ام ناقد ، وقد كان في نقده رساما مصورا للمضامين يتناولها كمن يثقب اللؤلؤ رائحا اليها كما الصناعي الماهر ، ليس خوفا على الثمائن التي بين يديه بمقدار خوفه على المهارة المتقنة التي هو عليها .

ام هو المتضلع من اللغة التي يعمل عليها سواء اعربية كانت ام اجنبية انه هو ذلك المثابر المدقق والصناع الذي تعلو صناعته كل ما سواها ، وفي هذا المجال تعود بي الذكريات الى يوم اجتمعت به في مكتبه مع القائمين انذاك على اصدار القاموس العسكري ، وكلهم جهابذة لغة ، وما زلت اذكر انهم كانوا على ايجاد لفظة تقنية لاحدى قطع المراكب فاختلف الراي على الاسم ، فاذا بالشيخ فؤاد يحسمه بقوله : « عندما اراد عمي وضع قاموسه ــ الفرنسي ــ العربي ــ كان يرجع الى اصحاب الصناعة التي تختص بها اللفظة ، مثلا يذهب الى النجارين متى الكلمة تختص بهذه الصنعة والى الحدادين والى والى ... وانا ابن الماملتين وهي شاطيء ولطالما اخبرني اصحاب الزوارق والمراكب في مينائها عن اسماء مختلف اجزاء مراكبهم ، وما انتم عليه الا منها ، وانها لكلمة فصيحة ولكم من كلمات نظنها عامية فنتحاشى استعمالها بينما هي اكثر فصاحة من كثير من الالفاظ التي نقر لها فصاحتها » وقد اعلن الشيخ فؤاد رايه هذا في غير مناسبة من ذلك قوله من مقال بعنوان ــ لغة المسرح :

« ... ولعل الاستاذ مارون عبود حين كتب مقال : « دائم دائم » وضمنه تلك الكلمات التي يحسبها السواد من الادباء عامية ، قد تعمد استعمالها وقصد اليه عن سابق تصور وتصميم . ولعله فعل هذا ليبرهن لنا ان العامة في احاديثها لافصح من الخاصة في بعض تعابيرها ، وان حذلقة الادباء وجهلهم ، هما اللذان يؤديان بهم الى هذه الحيرة التي يتخبطون فيها كلما عرضت عليهم قضية ادبية كقضية لغة المسرح ... »

اما المطالعة فقد شاع القول بان اكبر مكتبتين خاصتين في لبنان ، هما مكتبة شارل قرم ومكتبة فؤاد حبيش ، وقد يظن ان صاحبيهما ارادهما ــ للزينة ــ بعدما سرت عادة تزيين الدور بالكتب رجوعا الى النمط الروماني الذي حمل اثرياء الرومان على اقتناء الكتب حتى في الحمامات . انما من يتعرف الى المكتبتين ويرى ما على حواشي الكتب فيها من تعليقات واشارات وشروح واراء يدرك ما كان عليه صاحباها من شوق الى المطالعة .

كل هذه الصفات قد تكون في كائن وقد يكون بعضها او جلها لكنها لم تتفاعل شأنها مع الشيخ فؤاد حبيش اما السبب فينحصر في انه استطال الانتقال من درجة التجرد الى التحدي ، الذي لم يتوقف على امر دون الاخر، حتى وهو على مرض تحدى الداء ، وقد يكون انه بهذا التحدي قد تحكم بدائه وتسلط عليه حتى استفزه واثاره.

فوزي سابا

العام الجديد

●

آت كانك ذاهب يا عام   تدنو الرؤى ، فتباعد الايام
والخائبات تمنياتك ... حيرت   تصحو لوعدك ، والمدى احلام
ام تكتفي بعد الدعاء بوحشة   وتفاؤلات ارهقت ... وتنام

تعب الزمان وكم تكرر بوجه   للساهرين وصبرهم آلام
فقدوا السعادة ثم يلتمسونها   وتنازعت في توقهم انغام
هجروا شقاوتهم الى افراحهم   ولقد شجاهم دونها المام
يتواعدون الى الهناء تيمنا   والعمر فوق التمتمات هيام
فيجدد العشاق ايمان الهوى   خوفا عليه .. وصدقهم اوهام
ويكابرون وللوفاء حكاية   تروى .. وليس على الدهور ملام

يا عيد ما حمل الجديد الى الورى   من اغنيات واللقاء يقام
هل في انتظارات السؤال تبدل   حتى يعيد في الحنين غرام
وهل الجواب وقد تعال مدنف   غير الشرود وما درى الالهام
الحب ويح الناس في زهو الجوى   قد خلدوه وفي السنى ابهام
كان الوجود ولا يزال بقاءه   وعطاؤه في المرتجى تيام
ومن الطموح تمرد وتردد   عند العذاب وللوصال دوام

يا عام كاذبة مواعيد الدنى   هزل الصواب .. وما ادعاه مرام
تستقبل الماضي ويمضي مقبل   وتضل في ما انت منه تمام
اين الحقيقة ، اين ، في مدلولها   غابت لديك وشبهها العلام
والكون اطربه الضياع .. فمتعة   ما حاولت فكر ... وعز نظام
سئم اليقين وثار في مجهوله   يسعى اليه وما وعت ارقام
تهوي السياسة حين تلتزم المنى   والتيه في امل الشعوب حرام

الشوق ان يبقى ... فلا رجع   ولا سلوى .. ولا ما يحتويه كلام
والمستحيل وقد ترامى وجده   في المستحيل .. عزاؤه الاعوام

جورج رجي

تحقيقات عرضية

بقلم الدكتور علي جواد الطاهر

* * *

يحدث لك وانت تقرأ كتابا لغرض معين او تنظر فيه كيفما يتفق فتلاحظ خطأ او شيئا من خطأ كان الاولى لو خلا الكتاب منه ، وتحس بان المناسب ان تنبه اليه خدمة للمؤلف ورعاية للقارىء وحرصا على الحقيقة ... ولكنك تمضي في القراءة تحقيقا للهدف الذي بدات به ... حتى اذا انتهيت اشتدت بك الحاجة الى التنبيه ، وقوي فيك شعور بالاثم على ما فرطت ... فتحاول البحث جاهدا عن مكان الخطأ فيصعب عليك وضع الاصبع عليه : لقد ضاع في خضم الكتاب وخضم الحاجة الاخرى ..

وتتكرر الحال .. وترى ان تحتال للامر بما لا يقطع عليك سلسلة القراءة .. فتضع رمزا سريعا على هامش الكتاب ازاء ما حسبته خطأ .. كأن يكون الرمز « تحـ » مختصرا لتحقيقات عرضية ويسهل لك هذا الرمز العودة ... كما يسهل لك ان تجمع قدرا من هذه الحالات وتنشرها في الناس — خدمة للمؤلف والقارىء ...

وها هوذا قدر من هذا القدر .

(١)

انيس المقدسي « الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث » طبعة ثالثة منقحة ، بيروت ، دار العلم للملايين ١٩٦٣ (ط ١ ، ١٩٥٢ ، ط ٢ ، ١٩٦٠) ص ١٦٢ — ١٦٦ « الثورة العراقية » :

« ... وهكذا نمت فكرة اعلان الثورة . وقد القى محمد الباقر الشبيبي يومئذ خطبة وانشد قصيدة ... وفي هذه الثورة يقول محمد مهدي الجواهري من قصيدة:

الام التواني في الحياة وقد قضى   على المتواني الموت هذا التناوع

والخيري الهنداوي قصيدة طويلة نارية .. ومن موقدي الشعور الوطني يومئذ الشيخ مهدي البصير شاعر الحلة وهو من الذين اعتقلوا ونفوا . ومن شعره الشوري المحرك قوله في قصيدته : « لبيك ايها الوطن » . ومطلعها :

ان ضاق يا وطني علي فضاكا   فلتتسع بي للامام خطاكا ..

ومثل هذه العواطف تتجلى في شعر عبد الحسين الازري ، ومحمد ابي المحاسن ، وعلي الشرقي ، ومحمد الهاشمي ، وسواهم . اما الزهاوي والرصافي فلم نر لهما شيئا من ذلك في ما نشر من شعرهما » .

ومن الملاحظات على هذا الخبر :

١ — قدم المؤلف اسم محمد مهدي الجواهري على كثيرين غيره وذكر ابياتا من قصيدته قبل ان يتطرق الى ابيات البصير مثلا وفي هذا ما يوهم بان الجواهري اسهم بشعره منذ بداية الثورة وانه اهم في هذا الموضوع من الاخرين ... وهذا غير صحيح ... لان الجواهري نظم قصيدته بعد انتهاء الثورة ، وقصيدته رائعة .

٢ — ان البصير هو الشاعر الذي اقترن اسمه بالثورة واقترنت الثورة بشعره ، ومن هنا كان حقه ان يحتل مكانا ابرز من البحث .

ثم ان قول المؤلف « شاعر الحلة » لا يميزه ، لانه شاعر الثورة ، وصحيح انه من ابناء مدينة الحلة الا انه لم يقل شعره الثوري في الحلة وبين اهل الحلة ، وانما قاله — اكثر ما قاله — في بغداد .

٣ — اعتمد المؤلف في حديثه عن شعر الثورة العراقية — اكثر ما اعتمد — كتاب « الادب العصري في العراق » لرفائيل بطي ... وله عذر في بعض الوجوه ، ولكن العذر يضيق اذا علمنا — مثلا — ان للبصير ديوانا خاصا مطبوعا باسم « البركان » ضمنه ما قاله في الثورة العراقية ... وكان مناسبا لو ان الطبعة الثالثة افادت منه واعتمدته — طبع « البركان » سنة ١٩٥٩ .

٤ — الاسماء التي ذكرت بعد اسم البصير استلها المؤلف من كتاب رفائيل بطي « الادب العصري في العراق » ولو رجعنا الى هذا الكتاب ندرس شعر هؤلاء ... لم نجد ما يضعهم تحت عنوان « الثورة العراقية » ... ينظر ما جاء عن « محمد الهاشمي » على وجه الخصوص ... ولدراسة شعر الاخرين يحسن ان نبحث عن مصادر اخرى لشعرهم ولتاريخهم .

٥ — قال : « محمد ابي المحاسن » والصحيح : « محمد حسن ابي المحاسن » واذا قصدنا الاختصار قلنا: « ابو المحاسن » ... لان الاسم من نوع محمد حسن قد يكون مركبا وقد يكون الاسم الاصلي هو حسن ويذكر محمد قبله تبركا .

ولنا في الاسماء المذكورة الاخرى ما يحسن النص عليه : محمد الباقر الشبيبي هو باقر الشبيبي ، ومحمد مهدي الجواهري هو مهدي الجواهري ، وان الاسم المألوف للبصير هو محمد مهدي البصير وان كان اسمه : مهدي.

٦ — ليس للزهاوي والرصافي شعر مباشر في الثورة العراقية ... ونذكر كذلك مع الفارق ... محمد رضا الشبيبي (اي رضا الشبيبي) .

ص ٢١٦ — ٢١٧ : رضا الشبيبي :

١ — تظنون هذا العصر عصر هداية   واجدر لو تدعوه عصر ضلالات

وواضح ان « تدعوه » هنا يجب ان تكون « تدعونه » ولكن الوزن يحول دون ذلك ، وما مثل الشبيبي من يقع في مثل هذا .. ونرجع الى الديوان ص ١١٣ — كما اشار المؤلف فنجد :

تظنون هذا العصر عصر هداية واجدر ان تدعوه عصر ضلالات

والخطأ مطبعي .. كما يجب ان يكون .

٢ ـ خداع وكذب واقتراف وقسوة وظلم ـ أهذا العالم المتمدن ؟

اعتمد المؤلف رواية القصيدة كما نشرت ببيروت « البرق » . وفي الديوان ص ١٢٨ :

خداع وكذب وافتراء وقسوة وظلم ـ أهذا العالم المتمدن ؟

ومن الجائز جدا ان تكون رواية المؤلف عن «البرق» صحيحة و « الاقتراف » من جنس الكلمتين قبله «خداع وكذب » ـ حتى يخيل الى القارىء انها ربما كانت « افتراء » . ثم ان المعروف ان الشيخ الشبيبي لم يقدم شعر في الديوان دون تنقيح وحذف . ومع هذا ـ ومن باب المبالغة في الدقة ـ تحسن الاشارة الى اختلاف رواية البيت بين « البرق » و « الديوان » .

ص ٤١٩ : علي محمود طه :

« ومما يذكر من قبيل التوشيح الجديد ... اغنية « الغندول » لعلي محمود طه ... » ومعلوم ان رسم « الغندول » يقدم كما رسمه الشاعر وكما ثبت في ديوانه وكما شاع عنوانا لقصيدة عناها محمد عبد الوهاب اي الجندول .

تبقى المشكلة بعد ذلك اكبر مما هي ، الا وهي مشكلة رسم الحرف الاجنبي الذي تبدأ به الكلمة فلا الجيم المصرية ولا الغين اللبنانية مما يحل المشكلة ... لانهما لا يتفقان واللفظ الحقيقي لهذا الحرف ... او اللفظ الذي يقرأ به العرب الرسم المصري والرسم اللبناني ... وفي العراق يستعيرون الكاف الفارسية الى الكاف بخطين وفي المغرب يضعون على الكاف ثلاث نقاط .

قول المؤلف « اغنية الغندول » يعني انها اغنية فقط وانها نظمت اغنية على حين انها صارت اغنية بعد ان غنيت ...

ص ٤٦١ ـ ٤٦٩ : فهرس المراجع حسب ترتيبها الهجائي :

من المعلوم ان الفهرس الهجائي يشترط ذكر اسم الكتاب واسم المؤلف ... كما ورد عليه وبهيئته الكاملة ليسهل البحث عنه وليمكن ايجاده .. ولكننا لاحظنا تغييرا في الرواية :

١ ـ « ادب الحجاز » (مصر ١٩٢٦) الصبان .

المناسب ان نذكر السنة كما وردت على الكتاب نفسه اي (١٣٤٤ هـ) ومن ثم لنا ان نحولها الى السنة الميلادية، او تقربها منها ، بين قوسين ، علما ان ١٣٤٤ هـ قد تكون ١٩٢٥ .

الصبان : محمد سرور الصبان لان المؤلف يميل الى ذكر اسماء مؤلفي مراجعة كاملة .

٢ ـ « الادب في العصر الحديث » (بغداد ١٩٤٦) بدوي طبانه .

لااعرف كتابا بهذا العنوان ... ولكنني اعرف كتابا بعنوان « نهضة الادب في العصر الحديث » الفه بدوي طبانه بالاشتراك مع محمود ابراهيم ، كانت طبعته الثالثة ببغداد سنة ١٩٤٦ ـ وهو الذي سيذكره المؤلف ـ كأنه كتاب اخر ـ في حرف النون من تسلسل مراجعه .

٣ ـ « الادب وتطوره » (القاهرة ١٩٤٨) احمد عبد الستار الجوزي .

اخشى ان يكون المقصود : الحب العذري: نشأته وتطوره (القاهرة ١٩٤٧) احمد عبد الستار الجواري .

٤ ـ « جبران » (بيروت ١٩٣٤) مخايل نعيمة .

ان مؤلف جبران نفسه رسم اسمه على كتبه هكذا : ميخائيل نعيمة . وليس من حقنا لدى الفهرس ـ في الاقل ـ ان نتصرف برسم الاسم . لقد جعل واضع الفهرس اسم ميخائيل : مخايل عندما ورد من كتبه : زاد المعاد ص ٤٦٥ و المراحل ص ٤٦٨ .

وورد عن اسماء المؤلفين الاخرين : مخايل صوايا ص ٤٦٥ ، مخايل مشاقة ص ٤٦٨ .

٥ ـ « شعراء مصر في الجيل الماضي » (القاهرة ١٩٣٧) عباس العقاد .

العنوان الكامل : « شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي » ... ـ ولكلمة « البيئات » هنا اهميتها في منهج العقاد النقدي .

٦ ـ « فن الشعر لارسطو » (القاهرة ١٩٠٢) مكتبة النهضة المصرية

الصحيح ١٩٥٣ (ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي ...)

٧ ـ «نهضة العراق الادبية» (بغداد١٩٤٦) مهدي البصير .

الاسم الكامل « نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر » ... محمد مهدي البصير .

٨ ـ « الوجهة النفسية في دراسة الادب » (مصر ١٩٤٧) محمد خلف الله

الاسم الكامل : « من الوجهة النفسية في دراسة الادب ونقده » ... ومن هنا يوضع في تسلسل الميم وليس في تسلسل الواو .

٩ ـ « وحي الصحراء » (القاهرة ١٣٥٥ هـ) ابن المقصود وبلخير .

الاسم الكامل :« وحي الصحراء ـ صفحة من الادب العصري في الحجاز » جمعه محمد سعيد عبد المقصود وعبد الله عمر بلخير .

من اين ولماذا جاء الفهرس « بابن » هذه ؟!

(٢)

عز الدين الامين ـ « نشأة النقد الادبي الحديث في مصر » ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٦٢

١ ـ ص ١٠٩ الانتحال

« وليست فكرة الانتحال في الادب الجاهلي هذه بالجديدة فقد سبق اليها امثال ابن قتيبة وابن سلام »..

صحيح الانتحال : النحل .

والاولى تقديم ابن سلام علي ابن قتيبة ـ اذا كانت ضرورة لذكر ابن قتيبة ـ لان ابن سلام اهم واسبق (توفي ابن سلام سنة ٢٣١ وابن قتيبة ٢٧٦) .

٢ ـ ص ٣٧٢ : المصادر والمراجع

« تاريخ آداب اللغة العربية » ج٤: جورجي زيدان طبعة ثانية ـ مطبعة الهلال ١٩٣٧ .

الصحيح : جرجي ... ١٩٥٧.

« تاريخ الادب العربي » : احمد حسن الزيات ـ الطبعة الحادية عشر القاهرة .

الصحيح : الحادية عشرة .

« المستشرقون » : نجيب القعيمي ..

الصحيح : العقيقي (والخطأ مطبعي) .

(٣)

« النقد العربي الحديث » تأليف الدكتور محمد زغلول سلام ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٤ .

١ ـ ص ٣٤

Paul Ualery صحيحها : Paul Valery (والخطأ مطبعي كما يجب ان يكون) .

٢ ـ ص ٩٣

أ ـ « واشتهر بين النقاد والشعراء حماد وخلف ، وابن طباطبا وابن رشيق ، وقد انتصروا لهذا الاتجاه » .

ترى ما قيمة هؤلاء الاربعة بين الشعراء ؟ ان في تسميتهم بالشعراء تجوزا كبيرا .. واين هم من البحتري الوارد ذكره بهذا الصدد ؟

ب ـ « وقامت طبقة اخرى غير الشعراء ممن اهتموا بدراسات البيان وعرفوا بحسن تذوق الادب ،وهم مع ذلك غير علماء اللغة ، وغير الفقهاء المتفقهين على رأسهم الجاحظ صاحب « البيان والتبيين » . وهو نفسه الذي نوه عن هذه الطبقة الجديدة واشاد بها قال : «طلبت علم الشعر عند الاصمعي فوجدته لا يحسن الا غريبه فرجعت الى الاخفش فوجدته لا يتقن الا اعرابه ، فعطفت على ابي عبيدة فوجدته لا ينقل الا ما اتصل بالاخبار وتعلق بالايام والانساب ، فلم اظفر بما اردت الا عند ادباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات » ... »

ان الذين امتدحهم الجاحظ هم ادباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات ومصطلح الكتاب معروف ... هم الذين يقومون بالكتابة في الدواوين ، والعلمان المذكوران يوضحان المصطلح ... واذن فليس الذين امتدحهم الجاحظ « ممن اهتموا بدراسات البيان »، وليس الجاحظ منهم لان الجاحظ لم يكن كاتبا بالمعنى الاصطلاحي لعصره ثم انه لم يمتدحهم ليكون منهم او ليكون على رأسهم . روى الخبر عن الجاحظ ابن رشيق في العمدة ليثني ضمنا على «الكاتب» الذي يؤلف له كتابه وينتظر جائزته .

٣ ـ ص ١٣٨ « منهل الوارد في علم الانتقاد »

« ... يستعرض اهم النظريات التي اثرت في تطور النقد العربي ... فيتكلم ـ مثلا ـ عن كتاب دانتي ... ويشير الى تأثير النقاد في حركة « الكلاسيكية »والفرنسية خاصة مثل ديدرو وتيستيلان بآراء ارسطو في محاكاة الطبيعة » .

النقد العربي : النقد الغربي (والخطأ مطبعي)

ويفهم من التلخيص ان ديدرو وتيستيلان ذكرا هنا بصفتهما ناقدي ادب لان الكتاب الذي يلخصه المؤلف يتحدث عن النقد الادبي ، ولاننا لدى التلخيص نأخذ ما هو في صميم الموضوع من اعلام ... ولكننا اذا رجعنا الى منهل الوراد نفسه ص ٨١ ـ وجدنا الامر مختلفا لانه ذكرهما بصدد « نقد الفنون » اي « نقد التصوير والنقش» قال ـ في معرض الحديث عن النقد الادبي الفرنسي في القرن السابع عشر ـ : « اما نقد الفنون في فرنسا فقد كان في القرن السابع عشر وقد بنوا احكامهم في نقد التصوير والنقش على نفس القواعد العامة في نقدهم الفنون الادبية وينسب ذلك الى ديديرو ، قالوا انه اول من عرض الصور والتماثيل لنقد الناقدين في بهو منزله ثم كتب كتابه المترجم بالابهاء Salons .. وقد فات هؤلاء.

وذكر المصور تيستيلان لفظةالطبيعي بمعناها المفهوم منا اليوم فقال ان المذهب الذي يدعونه مذهب الطبيعيين يفرض وجوب محاكاة صنع الطبيعة في كل شيء اتم المحاكاة .

ومنذ يومئذ ابتدأ عندهم النقد الحقيقي للصناعات الجميلة ... عندئذ بلغ النقاشون والمصورون مقاما من البراعة والاتقان ورسوخا في معرفة هذين الفنين لم يبلغهما من جاء بعدهم من دعاة ديديدو واشياعه » .

ثم عاد الى الحديث عن النقد الادبي في القرن السابع عشر (وهو عصر الكلاسيكية) ومن كلام مؤلف منهل الوراد نلاحظ :

١ ـ انه ذكر ديدرو (او ديديرو ـ كما يسميه) ليصغر من شأنه وليبين ان نقد الفنون وجد قبله .

٢ ـ معلوم ان ديدرو من اعلام القرن الثامن عشر ، وذكر هنا على انه ناقد فنون ولم يذكر على انه ناقد ادبي . وهو على اي حال ليس من نقاد الحركة الكلاسيكية لان نقاد هذه الحركة جاؤوا في القرن السابع عشر (قبله) .

٣ ـ تيستيلان مصور ... وليس ناقدا ادبيا .

٤ ـ لم يرد ذكر ارسطو وكتابه في الشعر ...وانما وردت « لفظة الطبيعي بمعناه المفهوم منا اليوم » .

٤ ـ ص ١٦٨ « المازني »

عودة المواسم المنسية

تحسب الحلم انتهى .. فالدرب خال وترى الجو مطير
ويشق الجلد اعصار ففي سمعك الريح صرير
وتقول : العمر ولى ، وهدير البحر ما عاد هدير
تهرب الايام منا يا صديقي والعصافير تطير

واذا ... عينان تأتي من ضمير الغيب تغتال السكون
واذا الدهشة في الاحداق تسري وعدها مزن هتون
وترف البجعة البيضاء في الآفاق كالهمس الحنون
ويصير الطفل في اعماقنا يدرج في كل العيون

ويطل الوسم المنسي وعدا في خيالاتي الخجوله
يا حبيبي هكذا عيناك قد احيت باعماقي الطفوله
فالمسافات تدانت وصدى صوتك قد مد ذيوله
وخطانا في طريق الشوق عجلى ومطايانا ذلوله

دمشق — سلافة العامري

« كذلك استمرت هذه الحملة فيما الفوا من كتب النقد مثل كتاب « الشعر غاياته ومذاهبه » و « حافظ ابراهيم » للمازني ... »

الانسب ان نقول : مثل كتاب « حافظ ابراهيم » و « الشعر غاياته ومذاهبه » لان كتاب « حافظ ... » اسبق من كتاب « الشعر ... » لقد بدأ بنشر مادة « حافظ » على شكل مقالات عام ١٩١٣ ثم اصدره في كتاب عام ١٩١٥ وهو العام الذي اصدر فيه كتاب « الشعر ... » .

٥ ــ ص ١٩٨ « الديوان »

« اصدر المازني مع العقاد كتاب « الديوان » في جزئين صدر الاول منهما في فبراير والثاني بعده بقليل سنة ١٩٢١ ... »

الانسب ان نقول : اصدر العقاد والمازني كتاب « الديوان » ... لان اسم العقاد مقدم على اسم المازني في كتاب « الديوان » ، ولانه يحتل القسم الاكبر من الكتاب .

اما في تاريخ الجزءين فالانسب ان نتبع رواية محمد خليفة التونسي ــ وهو المختص بالعقاد ــ وقد ذكر ذلك في هامش ص ٢٥ من كتابه « فصول من النقد عند العقاد » فقال : « ... طبع اولهما في يناير وثانيهما في فبراير سنة ١٩٢١ واعيد طبعهما بعد شهرين » .

٦ ــ ص ٢٦٩ ــ ٢٧٠ « طه حسين وتين » .

« ويعتبر تين ابرز النقاد الذين استخدموا المنهج العلمي الحديث في الدراسة الادبية باعتبار ان الادب نتيجة لثلاث عوامل هي : البيئة ، والجنس ، والثقافة المعاصرة ... »

لا حاجة الى كلمة « الحديث » في وصف المنهج العلمي لاننا في قرن وتين في قرن ، والحديث يختلف في القرنين .

صحيح ثلاث عوامل : ثلاثة عوامل (وهو مما يرد الى الخطأ المطبعي) العوامل الثلاثة هي ــ وكما ذكرها طه حسين نفسه في مقدمة كتابه « في الادب الجاهلي » : الجنس والبيئة والزمان ــ والمناسب ان نتقيد بكلام طه حسين لدى الكلام على طه حسين ــ في الاقل .

٧ ــ ص ٢٧٠ « سنت بيف »

« اما سنت بيف (١٨٠٤ ــ ١٨٦٩) فقد بنى منهجا اخر في النقد يخالف منهج تين ويعتمد اساسا على درسه الشاعر او الاديب من جوانبه المختلفة من حيث عائلته ، ووضعه الاجتماعي والتاريخي ، وثقافته وافكاره ، او آرائه وفلسفته ... وقد ساعده عمله كطبيب على هذه الدراسة .. » .

من حيث عائلته .. او آراؤه

قولنا « وقد ساعده عمله كطبيب على هذه الدراسة» يؤكد في شدة مزاولة الطب مهنة ، ويبدو ان هذا لم يقع ، واذا وقع لم يجر على هذه الدرجة لان الرجل خاض حياة عصر عموما والادب منه خصوصا ، مبكرا ومستمرا ، مما لا يدع له وقتا لمزاولة الطب .. واذ يذكره مترجموه الفرنسيون في تاريخ الادب يكتفون بالقول : درس الطب ... وهو الاولى ــ اذا كان لا بد منه ..

جامعة بغداد ــ كلية الاداب — علي جواد الطاهر

من اراد الموت تعشقه الحياة ولا تفرط فيه ابدا، ومن اراد الحياة يطارده الموت ومن اراد الحب وجد البغضاء ، ومن اراد البغضاء وجد الحب .. ومن كان متفائلا تكالبت عليه الكوارث وامتدت يد المحن تتناول وجهه بالصفعات ويخيم على حياته التشاؤم ومن كان متشائما يجد الحياة تفتح له ذراعيها مرحبة به ،ويحوم حوله التفاؤل من كل جانب... المرء يسعى يرى ما لا يريد، ولا يرى مايتمنى.. بين المتناقضات ضائع تائه ..يبعثر العمر بحثا عن هذا بينما ذاك ملك يمينه لو تريث وفكر وفتح عينيه على سعتهما وابطأ خطواته وكف عن العدو وتأقلم واقلم ما يحيط به ..يمكنه اسعاد نفسه ونوال كل مبتغاه .

كانت هذه الفلسفة النظرية التي يعتنقها شعبان بعد طول معاناة .. ذات يوم كان يريد الموت ويتمناه لكن الموت وقف قبالته وهو راقد في فراشه بعد اجراء العملية الجراحية ..وقف الموت ينظر اليه متلمظا بشفتيه .. مخرجا له لسانه ..تمناه شعبان والاخر يبتعد ويبتعد ..ثم يدنو منه ويمتلىء قلبه بالامل في ان يغمض عينيه الى الابد ..دنا الموت امعانا في اغاظته وانعطف على السرير المجاور لسريره فاخذ شابا في العشرين كانت علته اخف من علة شعبان.. وكان الشاب على شفا مبارحة المستشفى سليما معافى ..

اراد شعبان الحب فوضع نفسه في الشركة تحت امر جميع عمالها يقدم اليهم خدماته ..يطالب بحقوقهم المهضومة ..كان كفاحه معروفا للجميع.. يذكرون يوم حرر الشكاوى لصرف بدل طبيعة العمل ..كاد يومها يساق الى السجن وهو يدبج الشكاوي لكل الجهات المسؤولة ..استدعي في قسم الشرطة والقي عليه التهديد والوعيد بعدم العودة الى مثل ذلك والا فالعقاب هناك في عالم اخر خلف الشمس حيث عذاب لا تشهده عين، وحياة مملوءة بالبؤس والشقاء .نجح شعبان اخر الامر في الحصول على حق ضائع من حقوق العمال .. اشتهر وذاع صيته وكان ان لقبوه لدابه على المطالبة بالحق « مشاغبا » .. ظن انه كسب حب وتقدير العمال جميعا وقد ملأ لهم جيوبهم بالمبالغ المجمدة التي تم صرفها ..شجعه ذلك على ترشيح نفسه لعضوية النقابة في الشركة ..وكان الفشل نصيبه .. ومرة اخرى وجد البغضاء عوضا عن الحب الذي تمناه ..

كان طول عمره يشعر بالتعاسة.. لا يحالفه حظ على الدوام ..اعتلت روحه ،فغدت تشاؤمية سوداء .. انعكس تأثيرها على تصرفاته .. فهو مرح والابتسامة الباهتة مرتسمة



بقلم جمعه محمد جمعه

دائما على شفتيه ..حركاته غريبة وكلها مزاح وتهريج .. كان يخفي ما يعج به صدره من تشاؤم وخوف وترقب للايام ..

حاول ان يكون مرحا لكن المحاولة تبددت وكان ان فكر في تغيير دفة حياته كلها .. فكر في الزواج بدلا من العزوبية ..وفكر في ان يعيش لنفسه لا عيب في ان يكون انانيا ..ولا عيب في ان يكون وصوليا .. ولا عيب في ان يحتفظ لنفسه اولا بالنصيب الوافر من كل شيء ..لا عيب في ان يختطف



اللقمة من فم غيره .. فوجىء وانتابته الدهشة وهو يرى الحظ يمد له ذراعيه لاحتضانه ،ويبسط له الحياة حبا وازدهارا ..تشجع وتقدم للزواج من العروس التي اختارتها له امه .. راى في ليلى توأم روحه كأنه خلق لها، وخلقت له ..تأكدت معلوماته بأن لكل رجل امراة فصلت لتكون على مقاسه. تكمل ذاته وروحه وقلبه وفكره .. تأكد له ان الانثى مكملة للرجل ، والرجل متمم لها ،ولكل رجل معين انثاه المعينة ..ها هو بعد الثلاثين يجد انثاه في انتظاره .. لو تعجل وتزوج قبل ذلك الوقت لكان اتعس الازواج ..لكنه انتظر اوانه بصبر وجلد ومقاومة عنيفة لرغبات امه وذويه .

تذكر شعبان كل هذه الخواطر وهو يحاول اضفاء روح التفاؤل على روحه المرهقة من طول المعاناة ..بدأ يتطلع الى طول العمر فقد امتلأت روحه بحب البقاء فوق الارض لا في احشائها بدا يتطلع الى الحب فوجده من ذويه واصدقائه وزملائه ..كان موضوع زواجه مثيرا للجميع .. خاصة في الشركة اذ كان يمثل زعيم العزاب .. وقد بدا الزعيم يترك مكان زعامته..

وكان ان جاؤوا اليه جميعا ساعين منتقلين من العاصمة الى البلدة لمشاركة زعيمهم الفرحة بتخليه عن مقعد الزعامة عن طيب خاطر ،وكان يقال للتهريج انه كزعيم للعزاب اغتالته امراة ..فيضحك ويقول :

ـ كلكم الى مصيري ذاهبون .. لا مفر ..

تطوع اصدقاؤه وعلى راسهم صبحي باحضار الفرقة الموسيقية والراقصات على نفقتهم الخاصة تحية له في ليلة تنحيه عن مقعده زعيما للعزاب .. كان ذلك يوم الخميس المعهود من شهر اغسطس .. يوم هبت البلدة كلها ترقص على انغام اغنية راقصة الفوا كلماتها ووزعوا لحنها وتغنوا بها «الليلة فرح شعبان».

تذكر وكله فرح وسرور نظراته

الى ليلى عروسه ..لا يصدق انه كان في تلك الليلة عريسا يجلس الى جوار أثاثه ،وبعد قليل ستكون زوجته شرعا وقانونا .. امتلأ بالاغتباط لتلك الفكرة التي نفذها .. فكرة الزواج .. نغزته وهو في قمة سروره غصة تشاؤمية حاول كبتها بالعض على النواجذ .. نظر الى ليلى وملأ عينيه من فتنتها ورونقها .. محاولا ابعاد الغصة عن تفكيره حتى لا تعكر صفو روحه ..شغل افكاره بفرحة امه وابيه واخوته واقاربه ..نظرالى احمد ابن خاله وهو يصول ويجول كالديدبان وكاد يقول له : « يا واد احمد ..الليلة طويلة والفرح لم يبدأ بعد » ..وكاد يقول لامه العجوز: « يا امي خففي من شدة فرحك على قلبك لئلا تتوقف نبضاته » ..

كاد يرى في عيون الناس مكانا جديدا مرموقا .. رآه مقعد زعامة اخر ..سيكون هذه المرة زعيما للمتزوجين ..فالجميع حوله لا شك انهم سيتابعون حياته يومابعد يوم.. سيشهدون سعادته ويرقبونها مغتبطين او حاسدين ..سيكونمثلا لرعاياه السابقين في دولة العزوبية يقتدى به ..سيهرول العزاب جميعا للحاق به ..سيحل جزءا من مشكلة الفتيات اللاتي يفتشن باحثات عن الرجال ..

توقف الركب المهول وسط زغردة طلقات الرصاص معلنة الحرب .. كانت حقا اشبه بالحرب ..وتحولت ليلة العرس الى غارة ..اطفئت على اثر انطلاق صفاراتها الاضواء وسقط احمد مضرجا في دمائه ..واصاب البشر جميعا وجوم معتم كسى الملابس الزاهية بالسواد ، وتغيرت دموع الفرحة في عيون النساءلاحالتهن التراب على وجوههن ..وارتفع دوي الصراخ ملء الافواه ..

زغردت غصة التشاؤم في قلبه .. وطاردت كل المشاعر الدافئة وتثلجت الدماء في أوردته وشرايينه ..ونقط دماء حمراء لزجة قذف بها جسد احمد الرافض للحياة في ليلة بدء الحياة لخاله شعبان عالقة بحلة الفرح الجديدة ..

كانت وقفة شعبان طويلة مع اصدقائه ساعة عادوا في منتصف الليل ليكونوا الى جواره في محنته.. جلسوا يبثونه الشجاعة ويغرسونفي روحه العزيمة والامل ..اعادوا اليه الارادة المسلوبة ..وقد هالهم الانهيار الذي كان يعانيه وهو يردد كببغاء :

ـ حظي سيء ..اعرف حظي .. ليس لي حظ ..

امسك صبحي بذراعيه وابعدهعن مسرح الاحداث وتوغلوا في الحقول في ليل صائف ممتع ..نسمات الهواء تعبر الوجوه تاركة عليهااثرا جميلا .. الحديث يدور حول مآسي الانسان منذ وجد على الارض ..كلما ذهب بهم الحديث الى ابعد عاد بهم شعبان الى مسرح الاحداث مبديا عجزه عن تخيل تلك اللحظات الرهيبة المهيبة..

شيئا فشيئا بدأ شعبان يشعربانه ليس وحيدا في هذا العالم الفسيح.. وحوله اصدقاؤه يخرجونبه من داخل نفسه ..تبدد شعوره بانه وحده في هذا العالم البائس الضائع ..كانوا حوله يهونون عليه محنته بالقياس الى محن الناس ..ويخففون من احزانه.. يقص كل منهم بعض ماسي حياته.. ففي حياة كل انسان فوق ظهر البسيطة مأساة ،ولا تخلو الحياة من المآسي الا اذا خلت المتناقضات وهذا هو المحال بعينه ..

اشرق صباح الجمعة وهم جلوس، وقد تبدد شبح الليلة الماضية ،وصار الامر عاديا يحدث كل يوم وفي كل مكان ..كان غريبا على شعبان نفسه ان يشعر بشفتيه تنفرجان ..ويلمس فوقهما ابتسامة تستقبل شروق يوم جديد ..ضحك على نكتة صبحي اللاذعة التي شدت الضحكات من الصدور ،اتسع صدر شعبان وصبحي يقول له مردفا بعد النكتة :

ـ أهم شيء انك وقعت في الخيه يا زعيم .. وقعت العقد ودخلت القلعة .

سأل شعبان باسما :

ـ اي قلعة ..

ضرب صبحي يمناه ببطن يسراه كعادته كلما تأهب لقول حكمة اوقول مأثور وقال :

ـ الزواج يا بني كالقلعة .. من بداخلها يحاول الخروج منها ومن بخارجها يحاول الدخول اليها .. ها انت دخلتها يا حلو ..

ضحك شعبان قائلا :

ـ والله ما شعرت بشيء يا صبحي ..جذبني سرور منذراعي ولا اذكر كيف وقعت ولا ما قيل وما رددت ..

اقترح صبحي لابعاد شعبان عن البلدة فكرة طرحها قائلا :

ـ ما رأيك في ان تصحبنا لزيارة السيد البدوي ..وتسافر معنا الى القاهرة حتى تنقضي ايام الحدادعلى ابن خالك .. ثم تعود ..

قال صديق اخرمحبذافكرة اخرى:

ـ المفروض ان يذهب الى عروسه ليزيح عن كاهلها عبءاحداث الامس..

ضحك صبحي وهو يدفعشعبان امامه الى بيت العروس قائلا :

ـ برافو ..فاتني ذلك ..أول اعمالك في القلعة يابطل المشاركة .. هيا ..

ودع شعبان اصدقاءه، شعر بضوء الشمس يخرج به من ظلمات ليلة البارحة .. رقص قلبه بين جنبات صدره وهو يتذكر وجه ليلى الممتلىء بالفرحة ..وقدميه تسوقانه الىبيتها وصهره يلقاه مرحبا ..

وما ان جلس اليها حتى نسي كل شيء .. الدنيا وما عليها .. الارض وما فوقها .. وحمد الله انه تمكن من عقد القران .. وما عليه بعد ذلك الا ان يؤدي واجب العزاء في ابن خاله .. وحياته امام عينيه لها اهميتها الخاصة .. وليلى تضميديه في حنان وحب ، ويطل من عينيها بريق الامل .

القاهرة   جمعه محمد جمعه



وديـع ديب

انسـانيـة الـفـرزدق

بقلم وديع ديب

***

سرعان ما يذكر اسم الفرزدق ، حتى يتبادر الى الذهن انه واحد من ثلاثة شعراء ، عرفوا بالمثلث الاموي لا لانهم من عصر واحد فحسب ، بل لان الظرف السياسي كان قد جمع بينهم في رابطة تتعدى حدود الشعر الى ما يشبه الندوة السياسية ، من حيث حاول كل واحد منهم ، ان يرتبط بحزب معين ، او فئة معينة يذب عنها بلسانه ما اسعفه البيان وانقادت له الحجج الدامغة . وقد كان الاخطل التغلبي مقيدا بسياسة بني امية الذين اصطنعوه شاعرا لبلاطهم ، في حين بقي جرير والفرزدق يتأرجحان في سياستهما بين هذه وتلك . وكان ان نجم عن هذا الصراع القلمي بين شعراء المثلث الاموي شعر يرتكز على الحوار العاطفي الذي قلما يخضع للمنطق او يعمل به . وقد عرفت هذه القصائد بالنقائض ، ذلك لان غاية الشاعر من الرد على صاحبه ، كانت تقوم على نقض اقواله بما يشبه تكذيب الارجاف بضده . ومع ان الفرزدق كان افحش قولا من صاحبيه غير انه كان لا يتنكر لانسانيته ولا يبتعد عن الروحانية الجديدة التي اكسبه اياها الاسلام في سماحته الطيبة . وقد زكاها شعور عميق بانه يتحدر من محتد كريم . فهو حفيد صعصعة التميمي ، الذي كان من اشراف عشيرته في الجاهلية والذي عندما اشتد القحط على قبيلته ، بني تميم ، وفشا الجوع فيهم راح يفتدي البنات قبل ان يحكم عليهن بالواد ساعة الولادة. هذا بالاضافة الى اب عرف بالمرؤة والكرم هو غالب التميمي الذي يشير اليه الشاعر في الابيات التالية وهي من اروع شعره :

وركب كأن الريح تطلب عندهم لهاترة من جذبها بالعصائب
سروا يخبطون الليل وهي تلفهم الى شعب الاكوار من كل جانب
اذا آنسوا نارا يقولون ليتها وقد خصرت ايديهم نار غالب

ودليل اخر على روحانيته الطيبة ، هي تلك القصيدة التي نظمها في الدفاع عن زين العابدين احد احفاد الامام علي وقد ضمنها الكثير من المناقب الدينية التي كان يتحلى بها صاحبه .

وليس قولك من هذا بضائره العرب تعرف من انكرت والعجم

على ان اسطع البراهين على انسانية هذا الشاعر لا تنحصرفي ما قاله دفاعا عن انسان من اهله او اصحابه بل في تلك القصائد التي نظمها في الدفاع عن الذئاب الضارية، التي يتهمها الناس بالخيانة والغدر والتي عرفت بعدو الانسان الاول ، في دنيا البداوة . حتى ان الكتب السماوية جميعها متفقة على ان الذئب حيوان شرير لذلك يعرف المرشدمن الناس عندمعظم الطوائف بالراعي الصالح. وقد جاءفي القرآن الكريم ان ابناء يعقوب طلبوا الى ابيهم ارسال يوسف معهم في رحلة الى مصر بقصد الاتجار « قال اني ليحزنني ان تذهبوا به واخاف ان ياكله الذئب وانتم عنه غافلون » . قالوا لئن اكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون .

ان الشهرة التي اكتسبها هذا النوع من السباع الضارية لا تعود الى قوته ، وانما تعود الى طبيعته الغادرة فهو لا يتورع عن الفتك باخيه عندما يشتد به الجوع وفي ذلك يقو ل الفرزدق :

وكنت كذئب السوء لما رأى دما بصاحبه يوما احال على الدم

ويذكر الجاحظ في كتاب الحيوان ان الذئاب قد تتهارش على الفريسة ولا تبلغ القتل فاذا ادمى بعضها بعضا وثبت عليه فمزقته واكلته واذا دمي الانسان وشم الذئب ريح الدم فما اقل من ينجو منه وان كان اشد الناس بدنا وقلبا واتمهم سلاحا . ثم ان العرب تزعم بان الذئب ينام باحدى عينيه وذلك فيه من حاق الحذر والى ذلك يشير ابن ثور الهلالي.

ينام باحدى مقلتيه ويتقي المنايا باخرى فهو يقظان نائم

وجاء في كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع ، على لسان الغراب وابن آوى ، ان الاطباء يقولون :

« من اراد قتل نفسه فليأكل لحم ذئب . ومن النوادر التي تروى للتدليل على غدره هي حكاية ذلك الاعرابي الذي كان مارا في حقل معشب فرأى سرحانا صغيرا لا يتجاوز عمره بضعة ايام فاحتمله الى بيته وارضعه من شاة له حلوب ليدفع عنه غائلة الجوع وكان انه عندما كبر وبلغ اشده وثب على مرضعته تلك واكلها

وزعت عطرك

انت الكبيرة ، انت النبل ينسكب   فما لشجوك ، يا نيساني ، سبب
وزعت عطرك في الدنيا ، فلا تسلي   والزهر زهرك ، كيف العطر ينتهب

كان الربيع خريفا ، يوم سامرني   من الهموم شعـاع مدنف تعـب
حتى مررت به ، فالروض مؤتلق   والبشر مبتسم ، والحزن مكتئب
نهلت اطيب ايامي . فوا حرقـي   اذ راح زهرك يذكي وهمه الغضب
انميت في الروض زهر الروض مرتفقا   فما له بات، من يومين ، يصطخب
لعل ذنبي ما ارخصت مـن غزل ،   وما وهبت بلا حرص ، وما اهب
ما لامست نزوة حبـا حييت لـه   ولا انثنيت بزهر الروض لي ارب
فكـان ايسر حقي ان يبـادلني   ودا بـود ، فـلا ينبـو بـه ادب

سالت نبلك ، لا تاسي اذا انشعبت   نفسي ، فـان فؤادي كاد ينشعب
ما همني ان زهر الروض انكرني   قد تنكر البيد ما تسخو به السحب
الذنب ذنبي . ليت الحزن دمرني   فـلا عتبت ، ولا ادماني العتـب
عهد علي ، وبي من لوعتي حـرق   وفي كرامة نفسي ،من اذى ،لهب
ان عنك لم اغترب ، حبا وتكـرمة   فمن احب رحاب لست اقتـرب

فوزي عطوي

فقال الاعرابي مخاطبا ضيفه الغادر :

عقـرت شويهتـي وفجعـت قلبي   وانـت لشاتنـا ولـد ربيـب
عقرت شويهتي ورضعت منها   فمـن انبـاك ان اباك ذيـب
اذا كان الطبـاع طبـاع ذئـب   فـلا لبـن يفيـد ولا حليـب

على ان الفرزدق برغم ما ترامى اليه من حكايات غدر الذئاب ، فانه ظل فريدا في موقفه وتفكيره وكأني به يعذر الذئب في عدوانه ، طالما ان القضية هي قضية جوع قاتل وبالتالي قضية موت او حياة . ولعله رمز به الى سياسة بني امية بالنسبة لآل البيت العلوي . وقبل الفرزدق كان امرؤ القيس وهو من سراة قومه ، قد وجد للذئب عذرا في طلب الرزق ولو بالمكر والخديعة حيث يقول:

وواد كجوف العير قفر قطعته   به الذئب يعوي كالخليع المعيل
فقلـت لـه لمـا عـوى ان شاننـا   قليـل الغنى ان كنـت لما تمول

ومهما يكن من امر فان انسانية شاعرنا الاموي تطل عليك من خلال ابيات نظمها في اطار قصصي تناول فيها حكاية هذا الذئب الجائع الذي جاءه طارقا في ليل ، فكان ان اخذته الشفقة عليه ، فاذا به امام هذا الضيف الضاري وجها لوجه ، وامام واقع الدنيا التي لا تفرق في قسوتها بين انسان وحيوان . اليك هنا كيف يلخص هذه الحادثة الطريفة بطريقته الخاصة :

وليلـة بتنـا بالغريين ضافنـا   على الزاد ممشوق الذراعين اطلس
تلمسنـا حتـى اتانـا ولم يـزل   لـدن فطمتـه امـه يتلمـس
فقاسمته نصفيـن بينـي وبينـه   بقيـة زادي والركـائب نعـس

فهل رايت كيف تأخذك الشفقة في امر هذا الذئب الذي ما عرف طعم الشبع منذ ان فطمته امه . وهل رايت كيف يستدرجك الشاعر الى مشاركته في الحدب على هذا الضيف الساغب اللاغب ؟ تلك هي انسانية الفرزدق التي لا يجاريه فيها احد من شعراء عصره وربما من شعراء العربية على الاطلاق . هذا ويحسن بي في ختام هذه الكلمة ان اترك بين يديك احدى حكاياته الرائعة لتقرأها انت وتستمتع بها دون اي ايحاء خارجي :

واطلس عسـال ومـا كـان صاحبا   دعـوت بنـاري موهنـا فاتاني
فلمـا دنـا قلت ادن دونـك انني   وايـاك فـي زادي لمشتركـان
فبت اسـوي الـزاد بيني وبينه   علـى ضـوء نـار مـرة ودخـان
وقلـت لـه لما تكشر ضاحكـا   وقـائم سيفـي مـن يدي بمكان
تعش فان وافقتنـي لا تخوننـي   نكـن مثل من يـا ذئب يصطحبان
ولـو غيرنـا نبهت تلتمس القرى   اتـاك بسهـم او شبـاة سنان

وآية القول فان مثل هذا الادب لجدير ان يبقى على الدهر وان بمثل هذا الشعر وحده، يتجه الانسان نحو الخير الذي لا يميز بين مخلوق واخر حتى ولو كان من الحيوان .

وديع ديب


عامر محمد بحيري

حصاد السنين

بقلم عامر محمد بحيري

* * *

شاعر من حلب

لم اشعر بسرور حقيقي ، وانا اقرأ ديوانا من شعر حديث، او شعر معاصر ، كما شعرت بالسرور وانا اقرأ ديوان « بعض اشعاري ».. لشاعر حلب المطبوع ، الاستاذ عمر ابو قوس .. الذي تفضل ، فارسل الي نسخة منه،تحمل روحا طيبة من الصداقة ، والود ..

وسبق ان قلت انني لا اريد ان اقصر الحديث كله في « حصاد السنين »، على ما اعرضه عادة من بعض اشعاري .. فلا بأس اذا من ان نجعل هذا المقال من الحصاد .. للحديث عن بعض اشعاره ..

والشاعر ابو قوس .. ليس شابا .. ولكنه شاعر ناضج ، انضجته السن ، والتجارب .. وعاش حياة مثالية ، كما تبينت من شعره ، قلما يحياها شاعر معاصر .. وقد احاطت به المحن القاسية في اخص شؤونه العائلية ، كما ركبته الديون الشديدة في شؤونه المالية والمعاشية .. ولكن ذلك كله لم يؤثر على شخصيته السمحة ، وروحه الرقيقة ، وعنصره الطيب .. فظل يفيض شعرا انسانيا ، مهذبا .. ينبع من القلب .. فيسري صافيا الى القلوب ..

وصلني ديوانه في منتصف رمضان .. فكان هدية الصفاء والاخاء .. ورحت اقرؤه مشغوفا به ، متأثرا بما فيه من جمال العرض ، وجمال اللفتات ، ورقة المأخذ.. ثم تركته قرابة شهرين.. وقد نويت ان اكتب عنه في « حصاد السنين ».. مؤثرا هذه الكتابة على ما لدي من كتابات اخرى واجبة الاداء ... وما كدت افرغ اليوم من بعض تلك الكتابات .. حتى رجعت اليه .. لا امل قراءته من جديد .. ولن امل هذه القراءة ، حتى بعد ان أفرغ من الكتابة .. لان هذا التشويق والتحبيب هما من اشد واجلى صفات هذا الشعر، الصادق، الجميل .

ومعالم حياة الشاعر .. يمكن ان تلخص في كلمات.. فقد ولد في حلبعام ١٩١٣.. من اسرة متوسطة الحال.. معروفة بالادب .. واتم دراسته الثانوية ، ثم عمل بالتدريس ، بين عامي ١٩٣٣ و١٩٤٦ .. ثم نقل بناء على طلبه الى وزارة الداخلية ، حيث عين مديرا لمطبوعات حلب واذاعتها ، ثم مديرا لاحدى النواحي .. حتى سرح من الخدمة عام ١٩٦٠ ..

اما عن الشعر فقد نظمه صغيرا ، وهو في الرابعة عشرة .. ونبغ فيه .. وكان يراسل الشاعرين الكبيرين ايليا ابو ماضي في المهجر الامريكي ، وجميل صدقي الزهاوي في العراق.. كما شارك في الحركة الوطنية في بلده .. وادلى بشعره في المناسبات العامة ، مع صديق عمره الشاعر الكبير عمر ابو ريشة ..

ولا تبقى سوى حياته الخاصة ، ويتبين انها حياة هادئة كريمة .. لولا ما نغصها من امرين .. فاض منهما ذلك الينبوع الثر ، الذي افاض على شعره جمالا،وصدقا، بلغ بهما من التأثير مبلغه .. احدهما انه رغم سعادته العائلية ، فقد حرم الولد .. وكثير من الناس ، ومن الشعراء ايضا ، من حرم الولد في حياته ، ولكن ليس منهم من عبر عن ذلك بالصدق الذي عبر به الشاعر عمر ابو قوس .. والثاني انه بعد ان ترك خدمة الحكومة عمل في التجارة ، واشتغل بزراعة القطن فخسر ، وركبه دين ثقيل .. وقد رحل في بعض فترات حياته ، هي في ظني هذه الفترة ، الى بعض البلاد العربية ، بعيدا عن اهله، وبلده ، محاولا ومناضلا في سبيل تحسين حالته المالية.. ولكنه لم يصل في ذلك الى ما اراد ..

وحرمان الولد ، هو الالم الشديد ، الذي حز في نفس شاعرنا .. فتحمله في صبر جميل ، اراه من اعلى مكارم الاخلاق الانسانية ، التي يوهبها المرء في هذه الحياة .. فهو محافظ على حياته الزوجية ، وفي لصاحبته الوفية ، متحمل قسوة الاقدار بنفس راضية ، متخيل في كل لحظة من لحظات حياته ذلك الامل المنشود.. الذي طلبه وتمناه .. منذ شبابه .. متمثلا في تلك الصورة التي علقها على الجدار ، تجسم له ذلك الحلم .. حتى اذا ابت عليه الايام ان تحيله الى حقيقة .. انزل الصورة ذات يوم من فوق الجدار .. واحرقها ..

يقول في قصيدة « الصورة المحرقة »..

فوق الجدار.. ومنذ ايام الصبى   علقت صورة حلمي المنشود
نهر ، ومزرعة ، وبيت قائم   ما بين اشجار ، وبين ورود
وصبية حسناء يلهو حولها   اولادها .. من يافع ووليد
وعلى ضفاف النهر يجلس زوجها   يرنو الى افق اغر ، بعيد

علق هذه الصورة ، التي تملؤه بالامل ، على جدار بيته .. ثم راح يضرب في فسيح الارض محاولا تحقيق ذلك الامل :

ومضيت في عهد الشبيبة سائرا   فوق الطريق الاسود ، الممدود
وتخضبت قدماي من اشواكه   بدمي ، ومن صخر اصم صلود
وانا حديد الطرف ، مشدود الخطى   اطوي المدى ، واسير سير عنيد
والحلم يبعد .. كلما دانيته   فيزيد في همي ، وفي تسهيدي

ومضى الشباب ، وسلخ من عمره قرابة الخمسين من اعوامه .. ولم يتحقق حلمه .. ورأى رفاق رحلته يسبقونه بلين ناعم ، وثراء جم .. وتذكرالصورة ، فأنزلها من الجدار .. وراح يتأملها ..

ومضى الشباب .. كانه برق خبا   في ليلة ظلماء ، ذات رعود
وتدحرجت خمسون .. الا اربعا   في هوة الزمن السحيق المودى
والصورة الحسناء فوق جدارها   تهفو ليوم حياتها الموعود
حتى اذا عصف الاسى بي مرة   وذكرت شقوة عمري المنكود
انزلتها ، ونظرت فيها ساعة   نظر الوداع .. وكنت غير جليد
فبكيت .. واشتعلت بقلبي حسرة   مثل اشتعال النار بعد خمود
وذكرت اصحابي .. فمن متنعم   جم الثراء ، وبائس ، وسعيد
وانا كما قد كنت ايام الصبى   لم الق من دنياي غير صدود
وذكرت فقري للبنين .. وزوجة   حسناء ، ساحرة الجمال ، ودود

وهنا طغى عليه اليأس ، وصب جام غضبه على الصورة التي رآها لا تمثل شيئا .. فأشعل فيها النار..

وطغى بنفسي اليأس حين رأيتها   سدت علي طرائقي بسدود
والصورة الخرساء ترجف في يدي   مثل الضحية .. في صبيحة عيد
فرميتها في النار فالتهبت بها   وتقلصت .. كالخائف الرعديد
وتراقصت فوق الجدار ظلالها   لهفي .. تلوذ بركنها المعهود
وربت قليلا .. واللهيب يحسها   ثم ارتمت .. واستسلمت لركود
ومضى الدخان الى العلاء .. كانه   بعض الثكالى .. في ملابس سود
حتى اذا صارت رمادا .. خلتها   تنعي بمصرعها الحزين .. وجودي

وربما كانت هذه القصيدة تمثل واقعا .. فهي وان مثلت انفعالات الشاعر اصدق تمثيل ، الا انها صورة حقيقية لشيء وقع . اما الصورة الوهمية ، او المتخيلة .. التي بلغ فيها الشاعر درجة عالية ، وحلق في سماء الشعر تحليقا بعيدا .. فهي في هذه « الصورةالمسحورة» .. كما اسمى قصيدته .. انها صورة اخرى كانت على الجدار منذ ايام الصبا ايضا .. تمثل صورة وليد جميل، ينظر اليه كل صباح ، فيتمنى تحقيق الامل المنشود.. انه لم يحرق الصورة هذه المرة .. ولكن الصورة هي التي احرقت كبده .. فقد راى الطفل الجميل ، يهتز في موضعه وهو يبتسم .. ثم يخرج من الجدار ، ليجيئه سيرا على قدميه . ثم يراه وقد بلغ الثانية من عمره ، ثم العاشرة .. ثم دنا منه وراح يعتذر اليه ، لتأخره في المجيء كل هذه المدة .. وراح يجري بينهما ما يجري من حديث الشوق والحب والعتاب .. ثم اذا به يرتد مبتعدا عنه، ويصغر حجمه وهو يعود الى الصورة رسما كما كان ..

يقول الشاعر .. في مطلع قصيدته « الصورة المسحورة » :

طفل رضيع ضاحك ابدا   يرنو الي بوجهه النضر
علقته فوق الجدار .. على   عهد الشباب الزاهر العطر
ومكثت ايامي اشاهده   وارى به امنية العمر

وتمضي الايام .. ويتشكك الشاعر في نظرة هذا الطفل وابتسامته :

ومضى الشباب كانه لجج   تهوى الى اعماق منحدر
والطفل يضحك حين ابصره   فيزيد في همي ، وفي فكري
اتراه يشعر بي فيضحك لي   ام قد كبرت ، ورابني بصري

واستيقظ من نومه ذات ليلة .. فرأى زوجته وهي تحلم .. كيف صور حلمها هي .. ذلك التصوير الرائع الجميل ؟..

وافقت امس من الكرى تعبا   فكانني اقبلت من سفر
متذكرا ما مر من عمري   فوق الطريق الموحش الوعر
وبجانبي عرسي ممددة   والنوم يحملها .. الى القمر
حيث الصغار البيض قد ملاوا   ساحاته .. كروائع الزهر
فترى لها من بينهم .. ولدا   زاهي المحيا ، اشقر الشعر
فتضمه ، وتشمه فرحا   وتحس فيه بنشوة الظفر
حتى اذا ما استيقظت رجعت   للارض تشكو خيبة العمر

ذلك حلم زوجته في منامها .. فكيف كان حلمه هو .. في يقظته ؟

واغرورقت عيناي من حزن   بالدمع ، ثم جرى على الاثر
ونظرت ناحية .. فطالعني   وجه الربيع الضاحك النضر
ورايته يهتز مضطربا   متفلتا .. من قبضة الجدر
ويمد لي كفيه .. مبتهجا   وينقل القدمين .. في حذر
في عامه الثاني .. ويدهشني   اني اراه ... مسرع الكبر
حتى استوى مثل ابن عاشرة   يمشي بلا وهن ، ولا خور
ودنا الي .. ولست احسبه   اياه .. لولا صحة النظر
ام ان بي مسا .. يعاودني ؟   ام قد كبرت .. ورابني بصري
اني لابصره واسمعه   والحق ليس ككاذب الصور

ماذا قال هذا الطفل المتخيل لابيه .. بعد ان كبر وترعرع وبلغ العاشرة .. في لحظة عين؟

ابتاه ! اني جئت معتذرا   اولست طول الدهر منتظري
قد عوقتني عنك عائقة   فناى المزار ، وطال بي سفري
ثم انحدرت اليك يا ابتي   عجلان ، عبر عوالم ، اخر

يقول ابوه :

فضممته للصدر مبتهجا   وفرحت حين اتى قلى قدر
وشممت في انفاسه نفسي   ولمست فيه حرارة البشر
ابني ! شوقي لا يقاس به   شوق الثرى الظمآن للمطر
ابني ! اني قد جررت على   نفسي ونفسك اعظم الضرر
لما حسبتك ظالما ، وابى   دهري علي .. سعادة الاسر
وبكيت من فرح به ، وبكى   بمدامع ، تنهل .. كالدرر

والدرر ، بكسر الدال المشددة .. جمع درة ، وهي الدفقة من المطر .. ولكن ما بنا ذلك الان، فان طفل الخيال يرجع صورة كما كان ..

لكنه يرتد .. مبتعدا   عني .. ويرجع مفرط الصغر
ابني ! لا تبعد عن النظر   يا خير منتظر ، ومدخر
وغدا .. كواحدة من الصبور   وتجمدت عيناه .. كالحجر
عينان قائلتان لي ابدا   لا شيء يمحو صفحة القدر

واتماما لهذا الجانب البالغ التأثير ، من شعر صاحبنا نقف عند قصيدة « هوس »..

فقد وقف الشاعر يوما امام حانوت ، يبيع صاحبه لعب الاطفال .. فتذكر حالته ، ولكن تفكيره دفعه لدخول المحل وشراء العاب لاطفاله الذين توهمهم في خياله .. انه يقول :

خرجت من منزلي اسوان معترضا   عيشي الشقي ، وآلامي ، وآمالي
وركب خمسين من عمري مضت عبثا   لم اجن منها سوى هم ، وبلبال
فلا صديق ، ولا مال ، ولا ولد   اشفى حنينا اليه .. هد اوصالي
اذا رأيت وليدا .. هاج لي شجنا   كما تهيج الصبا .. للعاشق السالي
فلو رآني بصير بالنفوس .. رأى   دمعي الخفي .. واناتي ، واعوالي

ووقف بعد ذلك امام الحانوت :

وكنت امشي على مهلي وقد حميت   شمس الضحى، ودنت من سمتها العالي
فاستوقفتني دكان مزينة   يبيع صاحبها حاجات اطفال
فمن ثياب جميلات ، ومن اكر   ومن دمى ، ذات الوان واشكال
والناس من والد فيها ووالدة   تبتاع ما يشتهيه طفلها الغالي
فحز في النفس اني غير ذي ولد   اشري له ، مثلما يبتاع امثالي
وان نبع حناني لا يمر به   صاد ، فيروى بعذب منه سلسال
كأنني دوحة القى بها قدر   في القفر .. ذات عساليج ، واظلال
تهدلت ، وحلت اثمارها ، وهفت   الى العطاء ، فما تحظى بأكال
كأن اغصانها ايد ممددة   من الحنان ، الى اطياف تزال

ثم دخل شاعرنا الى الحانوت ، فابتاع منه كما ابتاع غيره .. فماذا فعل ؟ وماذا قال ؟

وطال مكثي امام الباب منكسرا   بادي الهزيمة وحدي كاسف البال
حتى دخلت بلا قصد .. فطالعني   رب المحل .. بترحيب واجلال
فابتعت اكرة مطاط .. والبسة   شتى .. وعدت الى بيتي بادلال
هذا لمروان .. قد القد .. احسبه   وذا لاسعد .. والصغرى لها التالي
والدمع يجري على خدي منسكبا   والدهر يضحك من عقلي ، واحوالي
ولم ازل .. كلما اغفيت مضطجعا   سمعت في رقدتي اصوات اطفالي
واكرة .. تترامى بينهم .. لعبا   مسرورة .. ذات ادبار ، واقبال

والديوان في اكثره ، على هذه الوتيرة .. من الشعر الوجداني ، الشديد التأثير على النفس ، مما يدفع قارئه الى مشاطرة الشاعر احاسيسه ومشاعره ..

ولكن .. لكي نروح عن انفسنا قليلا .. فاننا نقف عند قصيدة جميلة .. وكل شعر الديوان جميل ، فان هذا الشاعر المتصوف ، بنشأته وبيئته ، وطبعه.. ليعبر عن ذات نفسه اصدق تعبير واصرحه .. فما رأيت استاذا ، عمل في التدريس .. وفي مدارس البنات بصفة خاصة ، الا وهو يتحرج ان يقول ما قاله هذا الشاعر الصريح الصادق.. في قصيدتيه .. « الطالبة الصغيرة » .. و « الطالبة العاشقة »..

ويكفي أن نقف لحظة عند القصيدة الاولى . لنرى نظرة الشاعر المعلم ، الى الطالبات الصغيرات .. وكيف صور شعوره الصادق نحو واحدة منهن .. ركب معها في (الباص).. ولم يزد على ان كتم مشاعره .. لكي يعبر عنها في الشعر دون حرج يمنعه ..

يقول الشاعر ابو قوس :

احب صغيرات البنات .. كأنها   براعم ، في اكمامها .. تتفتح
من اللاء .. لم يبلغن تسعا وعشرة   ويجهلن ما ياسو القلوب ويجرح
اولئك همي في الحياة وشاغلي   اليهن اسعى كل يوم واكدح

ويذكر صاحبته .. او طالبته .. فيقول :

وطالبة .. بيضاء منهن بضة   سبتني ، فقلبي في هواها مترح
وعينان خضراوان يهتف فيهما   الى غدها المجهول شوق مبرح

ويذكر موقفها في الباص ــ كما يسميه ــ بين زحام الراكبين .. فيقول :

بصرت بها في الباص والوقت ضحوة   وقد كاد من اثقاله الباص يرزح
وقد ملأ الركاب كل فنائه   فما لي فيما بينهم متزحزح
وفي يدها اليمنى كتاب ، ودفتر   عليه اسمها باد يضيء ويلمح
فابصرت حسنا لم اجد قط مثله   كأني منه شارب يترنح
وسار بنا الباص الهوينى .. كأنه   بعير بايدي الهاجرات مطلح

. . . .

فلما بلغنا القصد .. غادر جمعنا   نزولا ــ على رغمي ــ وما كدت ابرح
وراحت فتاتي بين سرب لداتها   يناقشنها في درسها وهي تشرح
وحولي جموع الطالبات كأنها   حمائم برج .. غاديات وروح

وما ظننت لحظة ان وقفة الشاعر في هذا الباص المزدحم يثير حوله ادنى ريبة .. فقد كان معلما ومربيا.. وهذه الصغيرة هي احدى طالباته .. وكانت العاطفة التي احسها نحوها صادقة ، فهو لا يرى بأسا في ان يكون لها ابا ، وزوجا ، ومربيا .. في نفس الوقت .. وهذا أصدق الحب ..

تعشقتها .. والشيب بيني وبينها   وذو الشيب مغلوب الفؤاد مطوح
ففي كل يوم .. اقتفي خطواتها   وانظرها ترنو الي .. فافرح
وما ضرها اني ابوها ، وزوجها   اروم لها الامر الذي هو اصلح
فذلك عندي اطيب الحب والهوى   احن على الورد الصغير واجنح
ارويه من دمعي ، واسقيه مهجتي   وانشقه فيما احب ، واسمح
وما تتساوى وردة قد تفتحت   لغيري .. واخرى في يدي تتفتح
يطول بها عمري ، وترجع شرتي   واهنا من بعد الشقاء ، وافرح

وربما كانت هذه القصيدة الجميلة ، لما صبها فيه من بحرها وقافيتها ، مما دعا مقدم ديوانه للقول بان اسلوبه يبدو في بعض الاحيان جاهليا .. وهذا ما لا اتفق فيه معه .. اذ اجد فيه اسلوبا معاصرا ، صادقا ، معبرا..

وليست دعوتنا للمحافظة على اللغة العربية ، وتراث العروبة ، بالتي تدعونا الى ان نطلب من الشعراء ان ينظموا كما نظم الاباء .. ولكننا نطلب اليهم ان يعبروا عن نفوسهم ومشاعرهم بمثل هذا الصدق ، وهذا الصفاء .. وذلك فوق الكفاية ..

على ان بقية قصائد الديوان .. جديرة بان تقرأ.. لنرى فيها شاعرا معاصرا .. ومحببا متصوفا .. ممتعا شعره حقا .. واذا كان قد استطاع ان يستخلص لنا من مجموعة شعره هذه الصفوة .. التي تمثل مراحل حياته اجمل تمثيل .. فانا نهنئه على ذلك .. كما نعرض شعره على الشباب .. ليروا ان الرجوع الى وجدانهم الحي، مع بساطة التعبير .. اجدى عليهم من الضياع .. في متاهات المجهول .. واودية اللامعقول !

مصر الجديدة   عامر محمد بحيري

أأحرم هذا؟

اتكتم ما تلقاه ام انت بائح ؟ … رويدك قد نمت عليك الملامح
تظاهرت بالسلوان ترضى صحابة … شديد عليهم ان دمعك سافح
لقد جزعوا حينا عليها وردهم … تيقنهم ان النفوس طوائح
ولوعرفوا من انت عدوا اصطبارهم … سجايا عقوق كلهن مقابح
ولكنني ادرى فلست بعابىء … وقد نبحتني في اساي النوابح
فقدتك فقدان الضرير ضياءه … فخطبي مهما قد تصبرت فادح
تنزهت في فردوس حسنك انتشي … بعطرك في ريحانه وهو نافح
اذا نسمت انفاس صدرك نسمة … تارج عطر في حياتي فائح
وان لألأت اهدابك الوطف بالسنا … اهل سرور في جبيني واضح
وان كنت ذا ناي وهاتفت مسمعي … تناغم طير بالمسرة صادح
وان عبست نفسي وذلك دابها … محا الضيق لهو من فنونك مازح
أاحرم هذا ؟ ثم اصغي لنصحي … رفضتهمو ، مهما تحايل ناصح
تخيرتها بين النواهيد طفلة … لها غدها الوحي بما هو مانح
كبرعم زهر مؤذن بتفتح … على غصنه ، والغصن انضر صابح
اذا رنحته في الصبا الغض نسمة … تملك روحي وهو غاد ورائح
فشبت على عيني اطالع نورها … كما يجتلي بدر السموات لامح
اذا مرت الايام زادت نضارة … وشعشعها فيض من البشر طافح
يهون اعباء الكفاح حديثها … كما لطفت حر الهجير المراوح
تساقطه عذبا فيشفى مزازة … لها وهج بين الجوانح لافح
تناهى بها حظي فهش تفاؤلي … وخيلت الاوهام انبي رابح
ولم ادر ان الصل ارهف نابه … كما شهر السكين في الكف ذابح
وقد صرخت زغب القطافي تفزع … تناشد من يحمي ، ولا من ينافح
تخبط افلاذي على نفث سمه … تخبط ورق داهمتها النوادح
يصحن ابي ،عجل ، فللموت هجمة … تحاصرنا ، والافق اقتم كالح
يصحن ابي ادرك بربك امنا … وابلس لا ادري بمن انا صائح
ايا لطب ؟ ماذا حقق الطب ويحه … وجهل النطاسيين بالموت فاضح
يزازلني حزني فاشرد لا اعي … لاي اتجاه في الورى انا جانح
لئن ضاق بي بيتي وغادرت سجنه … فاكثر ضيقا منه تلك الاباطح
واقرأ كرها كي ابارح لوعتي … فاذهل عن سفري ولست ابارح
اذا غشيت نفس الشجي واظلمت … فاي هراء ما تخط القرائح
شقيقة نفسي ، اين نفسي ، فانها … كما مت ماتت ، والرزايا سوانح
نزلت بدار الصامتين غريبة … لها معشر عند الكنانة نازح
فما صاح حول القبر دونك نادب … ولا هطلت فيك الجفون السوافح
حبست لساني ان يند بصرخة … على انني تحت المصيبة رازح
أأم حسام لو ترد منية … بنوح اذن رنت عليك المنائح
ولكنني ألزمت نفسي انة … مكتمة تنقد منها الجوانح

الرياض ـ كلية اللغة العربية
محمد رجب البيومي



محمد سليم رشدان

في مســالك الدروب

بقلم محمد سليم رشدان

* * *

بين وسام البطولة ووسام المعلم !

فاجأني بالزيارة .. وهو رجل جليل وقور ، تربطني بـه اواصر الجوار ، والجوار الدائم قرابة .. رضيت بهـا ام ابيت ! وموكول اليك تصنيف هذه القرابة ، وتحديدها في اي نوع تكون ، وذلك فيما تأتي به وانت تعيش حياتــك اليومية مع اولئك الجيران . وقال لي بعد ان استقر بـه المجلس :

ــ لماذا لا تبارك لـي ؟

فعجبت من سؤاله ذاك وسألته : وبماذا تريدنـي ان ابارك لك يا تـرى ؟

افبدت في قسمات وجهه مظاهر العتب من سؤالي، الذي اعتبره حسب اجتهاده تجاهلا ، وقال محتجا : تبارك لي بوسام المعلم .. عجيب امرك الم تعرف ذلك في حينه ؟

فقلت اعتذر عن عدم معرفتي ذلك : لقد عرض لـي سفر طارىء فلم احضر المهرجان الذي اقيم في عيد المعلم ووزعت فيه الاوسمة ، فاعذرني اذا ما فاتني علم ذلـك ، ولكن اخبرني من اية مرتبة كان وسامك ؟ انك انت الرجل الذي كان له الباع الطويل والفضل السابغ في مجال التعليم حقبة طويلة من الدهر .. !!

ورأيت صاحبي يغيم وجهه ، وتبدو في ملامحــه علائم الحرج والتذمر ، فندمت على سؤالي ذاك ، وتمنيت لو لم اكن قد سالته به ، ولكنه تحامل على نفسه ، وتململ في موضعه ، ثم بلع ريقه وهو يقول : لا ادري ان كانت لديك فكرة واضحة عن هذا الوسام .. اقصد وسام المعلم فـي نوعـه ودرجاته ..

فقلت اقاطعه ، وانا احاول ان ابدد ما سببته له من حرج : ان ما اعلمه عن هذا الوسام ، هو ان اللجنة التـي شكلتها الوزارة ذات يوم ، لتضع النظام الذي يمنح بموجبه للمعلمين ، اقترحت ان يسمى وسام المعلم ، دون ان تحدد له شكلا او درجة .

فقال يعقب على ما قلته باهتمام بالغ : ولكن وسـام المعلم له شكل معين ، ويمنح في درجات اربع ، تبـــدأ بدرجة (الممتاز) ، ويكون من الذهب الخالص ، ثم الدرجة (الاولى) ، ويكون من الذهب باستثناء دائرة في وسطــه تكون من الفضة . ثم الدرجة (الثانية) ويكون من الفضة الخالصة ، ثم الدرجة (الثالثة) ،ويكون من النحاســ الشبه ، الذي يسمونه (البرونز).

وحين بلغ هذا المدى من وصفه قلت اسأله : ومـن اية واحدة من هذه الدرجات كان وسامك ؟

فعاد اليه الحرج من سؤالي ذاك ، ورايته يغص بريقه من جديد ، وهو يرد علي مضطربا بقوله : انا .. اريـد ان اقــول .. ان اللجنة التي تحدثت عنها ، والتي وكل اليها ان تضع النظام الذي يمنح بموجبه هذا الوسام لم يخطر لها مطلقا ، ان تقترح جعل هذا الوسام في اربع درجـات، وانما هي اقترحته وساما وحسب .. هكذا قال لي واحد ممن اسهموا في اعمال هذه اللجنة ، وزاد على ذلك بانهم اقترحوا ان يعطى لمن امضى مدة عمله كاملة في حقل التعليم وما يتصل به في شتى مجالات وزارة التربية والتعليم .

فقلت استوضح من محدثي : وهل تظنهم ارادوه مثـل (وسام البطولة) الذي تمنحه الدول لمـن تصـدر عنهم اعمال البطولة في شتى مجالات التضحيــة ، سواء اكان الواحد منهم في السلك العسكري جنديا بسيطا ، ام قائدا كبيرا في اعلى المراتب والدرجات وسواء اكان مـن بين افراد الشعب ، انسانا بسيطا في مرتبة العامل ، ام كان رجلا عظيما له مركزه وخطره ومكانته .. فهل تظنهم ــ يا ابا فلان ــ ارادوه ان يكون كذلك .. ؟

فقال يجيبني متحمسا : ــ كذلـك ــ وبالضبط ــ ارادوه ان يكون ، له شكل واحد ، لا يتغير ولا يتبدل ، سواء في المادة التي صنع منها ام النقش الذي رسم عليه، على ان يمنح في هيئته تلك لكل معلم توافرت فيه صفات المعلم الذى ادى رسالته التعليمية على اتم وجوهها ، شانه في ذلك شان وسام البطولة ، الذي يمنح في هيئـــة لا تتبدل للمارشال العظيم ، كما يمنح للجندي الصغير في رتبته المتواضعة ، وهو يمنح كذلك للزعيم الجليل والرجل

المرموق ، كما يمنح للمواطن البسيط ، الذي لا يحيط به اي مظهر من مظاهر الاجلال والتعظيم ، وذلك بشرط ان يتصف كل واحد منهم — على اختلاف مراتبهم — بصفة البطولة ، التي تؤهله للحصول على مثل هذا الوسام .

هكذا قال صاحبي ، ولم اتجرأ فأعيد سؤالي ثانية عن الدرجة التي كان منها وسامه ، ما دام يفيض بمثل هذا الحماس ، الذي يشيع من عدم الرضا عن تعدد الدرجات التي يمنح بها وسام المعلم ..

وهنا يقوم السؤال الحائر : ما دام قد اقترح لهذا الوسام ان يكون وساما يمنح للمعلم ، بشرط ان يكون هذا المعلم قد امضى من عمره ردحا من الزمن ، وقفجهده خلاله ليمارس مهنة التعليم او ما يتصل بها في نطاق وزارة التربية والتعليم ، فلماذا يكون هذا الوسام على درجات يتفاوت بعضها عن بعض !؟ هل معنى ذلك ان التعليم على وجهه الصحيح يمكن ان يؤدى على انواع متفاوتة واشكال مختلفة ؟

ان المفروض في وسام المعلم ان يمنح لزيد من الناس — كائنا من يكون — لانه قام باداء هذه المهمة التي وكلت اليه — وهي التعليم وما يتصل به — على وجهها الصحيح ، بصرف النظر عن الدرجة التي وصل اليها او المركز الذي شغله ، وما دامت لا تتوافر فيه الشروط التي تؤهله لان يحوز هذا الوسام في كامل صفاته ، وفي انفس ما يكون من معدن ، فلماذا نعطيه نحاسة نملأ بها يديه ، ما دام لم يقم بالعمل على اتم وجوهه ، التي تؤهله لان يناله من الذهب الخالص ؟! لماذا لا نفعل ذلك ونطمئن اليه تمام الاطمئنان ؟ واي حرج في ان نفعله على مثل ذلك النحو ؟.

ان وسام البطولة بكامل صفاته ونفيس معدنه ، لا يمنح لكل اولئك الذين ساهموا في مختلف مجالات التضحية ، ما داموا لم يبلغوا مرتبة البطولة ، وكذلك وسام المعلم ، يحسن به ان لا يمنح في اتم صفاته لكل من مارس التعليم ، ما دام لم يبلغ في نظر الذين يمنحون هذا الوسام المرتبة التي تؤهله لان يناله !

اجل ، لماذا لا يكون الامر كذلك ؟ لماذا لا يكون هذا حال وسام المعلم ، في كامل صفاته وفي نفيس معدنه ، بالنسبة لاولئك الذين مارسوا مهنة التعليم وما يتصل به في مختلف المجالات ؟!

انه سؤال حائر ينتظر جوابا من المسؤولين في الاردن .. وان من حق الذين يكتبون ويهتمون بامر المعلم في ذلك القطر ان ينبهوا الى ذلك ، ان كانوا يؤيدون طرح مثل هذا السؤال .. وان واجب الذين يكتبون في غير الاردن من وطن العرب ممن احدثت اقطارهم مثل هذا الوسام ان ينبهوا الى مثل ذلك ايضا ان اقتنعوا بصوابه . !

وان من واجب الذين لا وسام لديهم للمعلم ، ان يدعوا الى احداثه ، تقديرا لهذه الفئة المجاهدة من ابناء وطننا الكبير ، وان يشترطوا في دعوتهم تلك ان يكون على نحو وسام البطولة ان هم اطمانوا الى ذلك واقتنعوا به .. !

واحد .. من الرواد

هجرة الاحرار : كان يجلس عند الشاطىء في واحد من مقاصف الاستجمام ، التي كان يلجأ اليها الناس في المدينة عند الاماسي ، يلتمسون الراحة من جهد النهار ، وقد تخير منه ركنا قصيا ، بعيدا عن مواطن الزحام والجلبة .

وجلس هناك يحدق في صفحة البحر ، ويرسل ناظريه الى آفاقه البعيدة ، التي لا يزحم صفاءها الازرق ، غير باخرة تلوح في الامد القصي ، لا يلبث شبحها المتأرجح فوق الافق ، ان يغيب وراءه ويتلاشى ، وفاجأه وهو في جلسته تلك واحد من اصدقائه ، تناول كرسيا من قريب وادناه الى نضده الذي يجلس اليه ، وهبط عليه بكل ما يحمله من اعباء جهده ، فاذا هو قبالته وجها لوجه ، وتنفس من اعماق صدره نفسا طويلا ، يستنشق به من نسيم البحر العليل ما يذهب عنه ضراوة الحر ، الذي عانى منه ما عانى ، وهو في طريقه الى المقصف تحت اشعة شمس الاصيل .

وابتسم لذلك الصديق وهو يرد تحيته ، ويرفع اليه ناظريه خلف عدسات نظارته ، وهو يرحب به ويكشف عن غبطته بقدومه ، لينفض اليه بعض ما يثقل صدره ، منذ ايام تلاحقت به . وجرى بينهما حديث طويل ، كان خلاصة ما فيه قوله :

« انني عازم على ترك يافا ، فقد سئمت نفسي مقارعة الاستعمار ، وضقت ذرعا بما اعانيه منه ، ويعانيه معي الكثيرون من اهل الفكر ، الذين يعد عليهم المستعمر انفاسهم ، ويضيق عليهم كل مجال يطلقون فيه العنان لاقلامهم . وحسبي من ذلك ما لقيته بالاستجواب المرير احيانا ، وبتعطيل المجلة (1) احيانا اخرى وتلك حالة لا يستطيع المرء ان يسيغ الحياة معها ، ما دام يشعر ان هذه الحياة في ظل المستعمر غير محتملة ، وغير كريمة .. » .

ويسأله صديقه ذاك : « والى اين تراك تعتزم الرحيل ، وان هذا الرحيل ليس بالامر الهين عليك ، وانت الالوف الحنان ، الذي كثيرا ما ردد بيت المتنبي وتغنى به ، وذلك حيث يقول :

خلقت الوفا .. لو رجعت الى الصبا   لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

وسوف يملأ فؤادك من الشوق الى ربوع يافا ما تضيق ذرعا باحتماله ، وسوف تظل ابدا تذكر الكثير من نعيم يافا ، في بياراتها وبحرها ومتنزهاتها ومجالس الاحبة فيها . والذكريات العذاب ذكريات الصبا والشباب التي تكمن في الكثير الكثير من مواطنها .. فهل انت قادر على ان تتحمل ذلك كله ؟! وهل انت قادر على أن تصبر

(1) المجلة : يقصد بها (مجلة الفجر) التي كان يصدرها في يافا عروس الشاطىء آنذاك .

عليـه ؟! .. » .

وعند سماعه ذلك من صديقه ، لم يسارع الى الرد عليه ، مما يتبادر الى الخاطر ، مختلطا مع الحماس المندفع والهوى العارم ، ولكنه اطرق براسه ، لانه لامس بسؤاله شغاف قلبه ، واصاب الصميم من سويدائه ، فاذا هـو يتضاءل حماسه ، ويخفت صوته ، وترق لهجته بالكـلام حيـن تكلم قـائلا :

« صدقت يا اخي ، ان هذا الرحيل ليس بالامـر الهين حقا ، واني لألوف حنان كما قلت ، كأنما بي اثر من عيب المتنبي عليه رحمة الله ، الذي تكشف بـه عن نفسه في بيته ذاك ، الذي ذكرته لي واني لذاكره ، ولكنها الحياة الكريمة ، التي يتسع فيها المدى للعمل والابداع ، ولا بـد لي من التماس مكانها حتى يتاح لي ذلك المجال ، فاعمل ما دمت لا ازال في غضارة الشباب ومقتبل العمر ، ولئـن سجلت على نفسي القعود الصامت من اليوم ، فسـوف تنطوي صفحة العمر ، دون ان اعمل العمل الذي ترتضيه نفسي ، ويطمئن اليه فؤادي .. » .

اخـوة القلم : وانطوت من صفحة الزمن ايام بعد ذلـك ..

وكان الناس في عمان في منتصف عام ١٩٤١ ، واذا بمجالس اهل الفكر فيها تفاجأ بخير جديد ، مفـاده ان واحدا من زملائهم في تلك الحرفة ــ حرفة الادب ــ هبط المدينة ، وحملته اليهم ريح التشوق الى الحرية من يـافا ، ليعيش بين ظهرانيهم ، ويكون واحدا منهم ، وانهم ليعرفون عنه الكثير قبل ذلك ، مما كان يكتبه في مجلته « الفجر » ، وما كان يكتبه في غيرها من الصحف والمجلات .

واتسعت له الصدور بقدر ما اتسع له المجـال او يزيد ، واسند اليه منصب (تدريس العربية) في ثانويـة عمان ، واحاطه اهل الفكر ــ على قلة عددهم ــ في ذلـك الحين ــ بكل ما تتسع له الطاقة من رعاية وعناية واهتمام ، وعلى راسهم (زعيم هذه الفئة الشاعر مصطفى وهبـي التل) ، الذي كان لسان حاله يردد :

ان فاتنا نسب .. يؤلف بيننـا ادب اقمناه مقام الوالـد !!

ليقول كلمته : ذلك هو القصاص الاديب الكاتبمحمود سيف الدين الايراني ، حين ابى عليه طموحه ان يعيش في ظل المستعمر ، وتعسفه الجامح ، وجوره الاهـوج ، وتضييقه الذي لا حدود له ، على كل من اراد ان يخـاطب الجماهير بقلمه ، ليدلها على طريق العمل المثمر .

ولقد وجد في الاردن المناخ الذي يتيح له ان يقـول كلمته بملء فيه ، دون ان يجد من يضيق عليه ، ما دامت هذه الكلمة دعوة الى الخير ، ولبنة صالحة في صرح بنـاء الوطن باجياله الناشئة ، وما اكثر ما قال الايراني بعـد ذلك تلك الكلمة بملء فيه .. !!

لقد تحدث بها الى طلابه ــ وما كان اكثرهم ــ فـي عمـان وفي اربد وفي السلط وفي الكرك ، وتلك هي مدن الاردن التي كانت فيها المدارس الثانوية آنذاك ، فهو اذن قد تحدث الى الطلاب في كافة انحاء الاردن .

مع الجهد والاجتهاد : ولم يقصر الايراني الحديـث بتلك الكلمة على طلابه ، بل تجاوزهم ليتحدث بهـا الـى الناس في الصحيفة والمجلة والاذاعة ، ولم يكن حـديثه ذاك وقفا على الناس في الاردن ، بل كان مشاعا للناس في الوطن العربي باكمله ، فقد كتب في مجلات الوطن العربي كلها ، كما تحدث في معظم اذاعاته ، ومعها الاذاعـات الناطقة بالعربية في خارج هذا الوطن .

ثم تحدث اليهم بكتبه التي تناولت القصة والمقالة والبحث والحوار والمحاضرة ، وكان في كل مجال يطرقه مجيدا ، لانه كان يبذل فيه اقصى جهده ، ويعرض فيـه دونما غرض ما يصل اليه اجتهاده الخالص لوجه الحقيقة ، وقد صدرت كتبه في يافا وفي بيروت وفي عمان ، كمـا صـدر بعض كتبه عن مديرية الثقافة والفنون الاردنية .

وحين نذكر كتبه ، لا يفوتنا ان نذكر بان له ما يزيد على خمسة كتب جاهزة للطبع ، وقد اعدها اتم اعـداد ، وبوبها ورتبها ولم يبق الا ان تدفع الى المطبعة فتطبـع . وذلك عدا ما تناثر له من ابحاث ومواضيع ، وتفرقـت هنـا وهناك في الصحيفة والمجلة والاضبارة مما تضمنته مكتبته .

بين المجلين : وحين نتحدث عن الرواد المجلين بيـن بناة الجيل الحاضر ، الذين اسهموا في وضع القـواعـد الوثيقة لبناء الاردن الحديث ، الى جانب الاسهام فـي النهضة الاردنية والفكرية في الوطن العربي بمختلف انحائه وفسيح ارجائه .. حين نفعل ذلك .. يبرز بين ايدينـا اسم ذلك الرائد الجليل الاستاذ محمود سيف الديـن الايراني ، لتمتلىء به الاسماع والقلوب ، وتمتلىء معـه النفوس اجلالا ومهابة ، وتقديرا لكل ما جاء به او صدرعنه ولكل ما نطق به لسانه او خطه قلمه . وغايته من ذلـك كله ، ان يوجه اولئك الذين يخاطبهم ، الى الطريق السوي ، الذي يسلكون بوطنهم الى المستقبل ، وهم يصنعون تاريخه الجديد .

وان الذين استمعوا اليه موجها فيما حاضر بـه او ناظـر .. وان الذين قراوا ما كتبه لهم في المجلة والصحيفة والكتاب .. ان اولئك جميعا سوف يذكرون للاستاذمحمود سيف الدين الايراني جهده وجهاده ، وهو يبذل لهم غاية ما وصلت اليه طاقته ، لا يدخر من ذلك حيلة او وسيلة .

ان اولئك جميعا سوف يذكرون له ذلك .. وانهـم سوف يذكرون معه : انه ادى رسالته على خير ما تؤدى الرسالة ومضى مخلصا للوطن العربي وابنائه ، وانه لجدير بان يقابل بالتقدير على ما اسلف وحق له ذلك دون ريب .

عمان ــ الاردن **محمد سليم رشدان**

عيد ميلاد

اذا احتفلت بهذا العيد في الوادي   فانه في زماني يوم ميلادي
اراه في التيه احلاما تضاحكني   وذكريات لذاذات واسعاد
قد كان يقبل والايام باسمة   فلم يرق في خيال الشاعر الشادي
عيد وانت تعاني الويل في ضنك   فكم فتى رغد من غير اعياد
انظر تجدني مع الازهار عاطرة   فواحة وصباحي بارد ناد
فتلك صفراء في سهد مفارقة   مثلي خليلا هواه حاضر باد
وتلك جمرة شوق من تلهفها   اريجها طيب اغوار وانجاد
ورب خضراء عند الفجر روعها   لحن روى شجني في المشرق الهادي
والايك في صبح ميلادي تحركه   اوتار مدنف قلب رائح غاد
والساجعات على الاغصان مطربة   مما يعانيه هذا الهائم الصادي
يشجي الحمام فتشدو يوم مولده   احلى اللحون بارواح واكباد
من كل ورقاء في الافاق تائهة   مثلي تطير بلا ماء ولا زاد
هتافة كم تنادي غير منتصت   والفجر يرقص من ترنيمها الحادي
يوم القيامة فيه الخلق في شغل   عن مستهامين في حشر وآحاد
كل عن الاهل والاحباب منصرف   في زورق بين ارغاء وازباد
يسير في اليم في الانواء مندفعا   بلا شراع ونجم في الدجى هاد
لا تطلبن من الطوفان مستمعا   ففيه كل امرىء رهن بميعاد
اذا تغربت عن ارض ولدت بها   فليس ثم سواها خير مرتاد
واقبل مصيرك مادمت الجدير به   ان المصير بتمهيد واعداد
كم كنت تسعى تعيسا غير ملتفت   الى نذير بتنبيه وارشاد
تصور الباطل المذموم منتجعا   ان التصيد كم يودي بصياد
وتبغض الحق مغرورا ومنخدعا   في مجلس من مجاني اللهو او ناد
لن تبث الجوى في العيد من ندم   او من تنادي لانقاذ وانجاد
والليل معتكر كالبحر مضطرب   والافق زخار ابراق وارعاد
اعمى البصيرة اهل للملام اذا   عانى تباريح تشريد وابعاد
ان الحقائق في واد منورة   وانت يا صاحبي المنكوب في واد
فخر الانام بمجد حاضر عجب   وانت صاحب مجد بينهم باد
اذا اتونا بما شادوا وما صنعوا   جئنا اليهم بآباء واجداد
وكيف نستقبل الاسياف مصلتة   ونحن ـ نحن فقط ـ اشباه اغماد

تعز عصيفرة ـ اليمن

علي محمد لقمان

يحكى قديما ان امرأة عجوزا قد احنى الدهر ظهرها وسلب لون شعرها وجعد وجهها، كانت مارة في طريق مقفر تحمل على راسها كيسا تضع فيه ما يجود عليها المحسنون من خبز وحبوب .. وكانت تقصد قريتها .. وما زالت بعيدة والطريق طويل شاق مليء بالحجارة .. ومالت الشمس الى المغيب وسكنت زقزقة العصافير .. واشتدت الرياح ومالت الى البرودة وتراكضت في السماء غيمات سود .

وشعرت العجوز بالقلق . وفكرت في ان الامطار لا بد وشيكة الهطول وما زالت امامها الطريق طويلا موحشا .. ونظرت حولها ، وتذكرت قصص الذئاب والضباع .. من الجنون ان تواصل السير .. وكانت قد وصلت الى سفح جبل اجرد كثير المغاور .. لو انها فقط امنت خلاء هذه المغاور من الوحوش .. اذا لأوت الى احداها تمضي فيها ليلتها .

واستجاب الله رغبتها ، اذ سرعان ما وقعت انظارها على مغارة متسعة المنفذ كأنما سوته يد انسان، وقد انبسطت امامه باحة فسيحة نظيفة. وزالت وحشتها وهي تنظر اليها ، ودخلت تضع ثقلها على الارض تتوسده تريح انفاسها المتعبة وتجيل انظارها في انحاء الكهف .. يا لعجبها . يخيل اليها هذا المكان غير غريب عنها .. اين راته من قبل ؟ فهي لا تذكر انها مرت بهذا المكان من قبل ... ولكن .. لا .. نعم .. نعم .. انها تذكر الان .. لقد مرت به مرة .. كان ذلك في الماضي البعيد .. وكانت بصحبة امها ..

وتنهدت .. في ذلك الوقت لم تكن عجوزا مهدمة مجعدة الوجه كما هي الان .. كانت صبية بعمر البدر وحسنه .. وكانت امها تحبسها في المنزل اكثر اوقاتها ، وتلازمها في غدواتها وروحاتها خوفا عليها من نهم الرجال .

وتنهدت مرة ثانية كما اعتادت ان تفعل كلما ذكرت صباها ، وجمالها الذاوي وشبابها الذاهب .. واغمضت عينيها وحاولت ان تنام .. ولكن مشاهد حياتها الماضية اخذت تتوالى امام ناظريها المغلقين .. تذكرت زوجها الذي هربت معه .. وكيف ماتت امها من الحسرة والشعور بالعار .. ثم كيف قتل زوجها وهو يسطو على احد البيوت .. وكيف مات اولادها الستة واحدا تلو الاخر بالوباء .

وانهمرت الدموع من عينيها ، واخذت تشهق وتمخط كما اعتادت ان تفعل كلما ذكرت حياتها التعيسة الماضية . بكت بكل ما يستطيعه القلب البشري من حرقة .. وانتفخت عيناها بالبكاء حتى بللت دموعها الكيس الذي وضعت راسها عليها .



بقلم بلقيس الحوماني

وبقيت هكذا الى ان غلب عليها النعاس .. ثم كف عقلها عن التفكير وغابت عن الدنيا .. لكنها لم تلبث ان فتحت عينيها عن اخرهما وقد انتابها شعور غريب بانها ليست بمفردها .. ونظرت حولها ولكنها لم تر احدا .. واوشكت ان تعاود الاغفاء ، عندما سمعت صوتا رقيقا يناديها باسمها .. وحاولت ان تفتح عينيها لترى من يكلمها ولكنها لم تستطع .. ولم تستطع ايضا حتى ان تحرك عضوا من اعضائها ..

وتابع الصوت برقة غير بشرية :

— اسمعي ايتها العجوز الصالحة.. ان الله قد سمع تأوهاتك التي لم تنقطع منذ سنين كثيرة .. واحس بحرقتك التي لم تخف او تبرد مع الايام والشهور . ولهذا شاء ان يستجيب لامنية تتمنينها تنسيك الك وحزنك .. فاختاري .. انما احسني الاختيار .. لئلا تندمي حين لا ينفع الندم .



وامتلأت نفس العجوز فرحا وغبطة متناهية .. وحاولت مرة اخرى الى ان تجلس او حتى ان تحرك راسها لترى من يحدثها. ولكنها لم تستطع ابدا حتى ان تدير انسان عينيها تحت جفنيها المغلقتين . ثم اخذت تفكر فيما يمكن ان تطلبه من الله عز وجل . هل تطلب رؤية اولادها ؟ انها اغلى امنية يمكن ان تفكر فيها .. وسالت دموعها مرة اخرى لذكراهم واوشكت ان تحرك لسانها في فمها تطلب ان تراهم مرة اخرى .. ولكن فكرة اوقفت الكلمات في حلقها .. انها عجوز فانية منتظر موتها بين لحظة واخرى .. واملها في الاجتماع باولادها اصبح اقرب من اي وقت مضى .. وربما احضر لها الله عز وجل اولادها اليوم لتفارقهم غدا بالموت عندئذ عليها ان تنتظرهم مرة اخرى في الاخرة فهي بهذا الطلب تطيل امد الفراق ليس الا ..

اذن ، فلتترك هذا الطلب لانه كائن قريبا على اي حال ولتفكر بامنية اخرى .. ماذا ايضا؟ نعم انها عجوز فانية .. ولم يبق لها من امل الا في جنة الخلد فهل تطلب الجنة ؟ ؟ .

وارتاحت الى هذه الفكرة واوشكت ان تستقر عليها لولا خاطر فجائي اوقفها عن الكلام .. لقد امضت حياتها في الالام والمحن .. فصبرت على هذا كله وكانت لا تكف عن الصلاة والصوم والعبادة وحمد الاله على المكروه .. وكان من نتيجة هذا ان ارسل الله اليها هذا الملاك الذي يدعوها بالعجوز الصالحة .. افليس معنى هذا ان الله سبحانه وتعالى راض عنها؟ وماذا بعد رضاء الله غير الجنة والنعيم ؟ فما معنى ان تطلب من الله ان يهبها ما

اماه

اماه :روض الحسن، رفافالسنى — عائث برونقه البهي ايـادي
فاعاضت الروض الاغن بمشهد — ـ آه ـ يحز شجاه في الاكبـاد
روض سقاه هـواك اعـذب منهل — ـ عفوا ـ فـداه فكان اكرم فادي
سكتت بلابلـه ، وجـف غديـره — وذوت ازاهـر غصنــه الميـاد
هل من حنانك ما يعيد له الرؤى ؟ — هل من حنـوك بلسم لفـؤادي
مـدي اليـه يـد الامومـة انهـا — كف السمـاء تفيض بالاسعـاد
ليـل الاسى اودى ببهجـة عيده — ردي اليـه بشاشـة الاعيـاد

البحرين — عبد الله الشيخ

هو مكتوب لها ؟ واذا ...

وقطع سلسلة افكارها سعال حاد كان يعتريها دوما فأخذت تقح وتقح حتى سالت دموعها واخذ بدنهـا يرتجف ... وعندما هدات اخـذت تفكر ...انها مريضة منذ سنين .. فلماذا لا تطلب الصحة ؟ولكن .. لو طلبت الصحة فمعنى هذا الصحـة الدائمة ان مرضها يدنيها من القبـر يوما عن يوم ..والقبر يعني بالنسبة اليها الراحة والاستقرار والانتقالالى جنة الخلد حيث ابناؤها واعزاؤهـا ينتظرونها .. فلماذا تعرقل ذهابهـا اليهم بطلبها الصحة التي تبقيها في هذه الحياة الدنيا باحزانها والامها؟

وتملكها اليأس فترة.. ماذاتطلب؟ اذن ؟..اواه ..لقد نسيت ..كيف نسيت ؟كيف نسيت حسرتها منـذ ساعة عندما ذكرها الغاربفترة شبابها وجمالها الماضيين ؟لقد امضت حياتها في التنهدات كلما راودتها ذكريـات شبابها وجمالها العابر .. فلماذا لا تطلب من الله ان يرجعها شابة جميلة ناضرة مرة اخرى :

وامتلأ قلبها برهة بالفرح . لقد استقر رأيها اخيرا ..

وحركت لسانها في فمها وقالت :

ـ ايهـا الكائن غير البشـري .. لقد استقر رأيي اخيرا .. انياطلب ان تعود بي الايام وارجع صبية شابة جميلة كما كنتبنت اربعةعشر عاما .

ـ حسنا ايتها العجوز الصالحة.. ولكن يجب ان تعلمي ان حياتكستعود فتتكرر بحذافيرها من السن التـي سترجعين اليها . فهل انت مستعـدة لتكرار التجربة ؟باستطاعتك التفكير والرجـــوع عن قـــرارك او تغييره ..وذلك كي لا تندمي حيثلا ينفع الندم .ان جـوابك هـذه المرة سيكون الاخير فلا تتعجلي .

وساد صمت عميق والعجوز تفكر وتفكر ..جميل ان تعود شابةجميلة مرة اخرى .. ولكن ،ما معنى انتتكرر حياتها بحذافيرها مرةاخرى؟ هـل معنى ذلك ان يطيش بصوابها رغبة رجـل فيهـا فتهرب معه ؟ وبعدها تصيب الصدمة امها بالشلل لتموت بعدها بشهور ؟وهلمعنى تكرارحياتها ان يأتي اولادها مرة اخرى وتحتمـل نفس الالام والتضحيات في انجابهـم وتربيتهم لتراهم يموتون امام عينيها بالجملـة ؟وهـل ستتكرر السنون الطويلة الحافلة بالشقاء والدموعالتي تلت فقدهم ؟يعزيها خاطر واحد . وتسعى الى هدف واحد ..هو ان تموت فتجتمع بهم في جنة الخلد ؟.. كيف ؟كيف بلغ بها الحمق والتفاهـة ان تطلب تكرار حياتها الغابرة ولماذا ؟ لاجل فترة شباب تمر مر السحـاب؟ وجمال لا يجر عليها سـوى رغبـات الرجال ونهمهم ؟.. وهل تسـاوي رغبات الرجال ما ذاقـته من آلام وعذاب ، ومتاعب الولادة والامومة؟

ان ما يعزيها بعد السنين الطويلة التي امضتها هو شيء واحد .هو ان كل هذا قد طواه الزمـان واصبـح مستقرا في الماضي البعيد ..وان كل لحظة حزن او الم قد ذهبت الى غير عودة ..وطال سكوتها ..وعادالصوت الرقيق غير البشري يقول بعذوبـة متناهية :

ـ والان ايتها العجوز الصالحة ؟ علام استقر رايك ؟ وبهدوء عذب . وصوت عميق اجابت العجوزبقولها :

ـ شيء واحد اطلبه من اللهتعالى. وهو ..عفوه وغفرانه ..عفوهوغفرانه على ان رغبت مرة في تغيير حكمـه ، ولم افهم حكمته ..

وتباعدت جدران الكهف ،وشعمن جوانبه نور باهر ...وتجاوبت في انحاء المكان انغام رائعة غير دنيوية ، بينما كانت العجوز مستلقية عـلى ظهرهـا بـدون حراك وقد اضاءت وجهها بسمة ملائكية ليست منهذه الدنيا الفانية وماعادت لها بها صلة..

بلقيس الحوماني



عباس محمود العقــاد

حديث مستطرد عن العقــاد

بقلـم وديـع فلسطـين

* * *

في شهر يونيو الفائت عدت الى بيت عصامي الادب والفكر، وجبار الحياة الادبيــة ،عباس محمود العقاد لاحتفل مع خلصائه بعيد ميلاده الخامس والثمانين .ولم يكن صاحب العيد حاضرا بجسمه ،بل كان حاضرا بروحه التي لاينسـاها عارف ،وبصوتـه الذي سمعناه مسجلا علـى الشريـط ، وبصوره المنتشرة في المكان ،وبتمثاله الشامخ المنتصب في القاعة ،وبكتبه الذخائر المتراصة على الارفف ،وباخوانـه وحوارييه الذين عرفتهم ندوة العقاد يوم الجمعة وبقـوا على شهورها مثابرين ولعميدها مبجلين مكبرين .

وتحدث علي ادهم، وهو من اعاظم مفكرينا المعاصرين الذين اخلصوا لرسالة الفكر وآمنوا بقيمة العقل ايمـان فطرة، وخدموا الضاد خدمات صامتة نصف قرن، ولم يكن حظه بعد هذه الرحلة الطويلة الا حفاء القدمين ،يجربه كلما أراد ان يطبع كتابـا او ينشر فصلا سكب فيـه عصـارة العقل ...

تحدث علي ادهم عن صديقه العقاد ،فقال انـه كان آصل خلقا من زميله المازني وشكري ،وكان يكتب ما يشاء من آراء مندفعـة الجراة بامضاء صريح ،فلا يستأجر ولا يؤجر ولا يحرض غيره على خصومـه ،بينما كـان شكري يتعامل مع صحافة « الصاعقة » وما اليها حيث كان الاقذاع تجارة مكتوبة الرواج .

وتحدث عامر العقاد ابن شقيق العباس العظيم وأبو العباس الطفل ،فقال انه حمل البريد اليومي ذات صبـاح الى عمه ،ففحصه بنظرة سريعة ،ثم استوقفت نظره رسالة ميز خطها ،فأمسكها بيمناه وقد اربد وجهه ،وقال لعامر : لا بد ان صديقنا القديم شكـري أصيب بفالج .ولما فض الرسالة ،كان كاتبها هو عبد الرحمن شكري فعلا ،وكـان يعتذر للعقاد رداءة خطه لانه بعد الفالج الذي نزل به لـم يستطع ان يكتبها الا بيسراه وظل العقاد طوال يومه حزينا منقبض النفس لا شهية له الى طعام او شراب ،ونسي تلك الخصومـة القديمـة بينـه وبين شكري مـن ايام كتاب « الديوان » . ولما مات شكري رثاه العقاد اوقع رثاء.

وتحدث أحمد هاشم الشريف ،وبينـه وبين العقاد مؤاكلـة ومساكنـة ومخالطة لانه من ذوي قرباه ،فروى للحاضرين قصة ندوة العقاد ،وكيف انها بدات في حدائـق الحيوان واتخذت مجالسها الاولى بالقرب من جبلاية القردة حيث كان اصفياء العقاد يناقشونه في شؤون الادب وشؤون الحياة .ثم اخذت تلك الندوة الاسبوعيـة تتسـع بكثرة المنضمين اليها من عشاق الادب ،ولكل منهم صديق يعرفه العقاد هو مزكيه عنده . فلما صار المترددون من الطفيليين اكثر من رواد الندوة الاصليين ، ولما لاحظ العقاد ان بـين اولئك المترددين قوما لا هم من فصلية القرود ولا هم مـن زمرة الادباء ،قرر الانتقال بالمنتدى الى داره حفاظا علـى خصوصيات المناقشات من الابتذال وسوء التأويل .

واشجانا الحساني حسن عبد الله بقصيدة من موزونه المقفى، اسمعها للعقاد في حياتـه ، ثم اطربنا بترديدها في ذكرى مولد صاحبها .

وحدثنا الدكتور كامل السوافيري عن نادرة طريفة. فقد كان يزور « دار المعارف » حيث يطبع للعقاد كتاب . وتنطع واحد من المصححين فحذف من تجارب كتاب العقاد لفظة « لذاذات » بدعوى انه لم يسمع بها من قبل .ولمـا نبهه رئيسه الى ان العقاد دار للغته ،وانه قاموس للادب موثق ،وان تبديل لفظـة من الفاظـه من شأنـه ان يفقد المصحح وظيفته في الدار ،آثر المصحح السلامة واستبقـى « اللذاذات » وفي صدره آهات ! .

وألقى الشاعر المجيد حسين خريس قصيدة عن دار العقاد قوبلت بالاعجاب في كثير من مقاطعها . قال في مطلعها:

ها هنا كانت له الـدار القرار ... فأتينـاها حجيجـا للمزار
سمته مـا زال فينـا والرؤى ... لم تزل خضراء واللـون نضار
من هنا كانت لـه في وكـره ... خطـوات المجد من غـير عثار
ظـل يحبـوه فمـا مـل ولا ... كل عزم لا ولـم يفتر اوار

والقيت كلمة عما علمناه العقاد قلت فيها :

العقاد معلمة حية باقية ،يرجع اليها الباحثون والمنقبون فيجدون فيها غايتـهم . فأدبـه علم وعلمـه ادب ، وفلسفته منطـق ، ومنطقـه فلسفـة ، وفقهـه

أصول ،واصوله فقه ،وفنه ذوق ،وذوقه فن ،ودينه عقل، وعقله دين ،ومبادؤه عقيدة ،وعقيدته مبادىء واحكامه عدل واجتهاد ، وقسطاسه يسهر عليه ضميره .

وهو قبل ذلك وبعده انسان عظيم يكاد ،لولا الضعف البشري ،يكون « سوبرمان » قليل المثال في تاريخ الفكر العربي. ورجل هذه اطراف معالم شخصيته ، لا يتكرر ولا يجود الزمان بمثله في كل الف جيل .

ولقد علمنا العقاد العصامية الآمرة ،والعقيدة الثابتة، والكبرياء الشامخة ،واستقلال الراي ،ولو انفرد به دون الدنيا جميعا .

علمنا ان نطلب العلم من أوسع ابوابه ،وفي ارحب دياراته ،وان نقف الحياة جميعا على نشدان العلم والحقيقة فهما القيمة الواحدة الباقية بين القيم جميعا .

علمنا ان نقول الراي او لا نقوله بشجاعة القلب وشهامة العقل .علمنا ان الادب كرامة وحرية ورسالة ، فتجاهل كل من تحرش بكرامته او آذاه في حريته او جافى رسالته من أدعياء الادب وطفيليه المتسلقين .وقد قال لي مرة : عيال الادب لا تعامل لي معهم .وكان يقصد العيال « القوسقزحيين » الذين تجراوا على مهاجمته بدعوى انه كاتب رجعي ! .

علمنا العقاد ان نثبت في الميدان بكبرياء العقل ،وايمان القلب ، وصلابة العقيدة .ومن يقرا «خلاصة اليومية» اول آثار العقاد ــ ويقرا اخر يومية حررها قبيل وفاته ،ير العقاد سائرا في خط واحد ليس عنه يحيد .وهذا هو الثبات الفكري الذي يزداد مع الايام غنى ،وتترسخ له في الحياة آيات باقيات .

مع العباقرة عاش، فلتكبر هامة العرب عبقريا فذا بين أعاظم عباقرتها في كل تاريخها ،ما كان منه وما سيكون .

وكان من الحاضرين في ميلاد ذكرى العقاد العوضي الوكيل تلميذ العقاد الوفي ،وصاحب الكتاب الممتع الفذ « قضية السفود بين العقاد وخصومه » ،ولكن العوضي لم يتكلم في هذه المناسبة بلسانه ــ بسبب وطأة الداء عليه ــ ولكنه شارك بكل جوارحه في هذه الجلسة المضمخة بعطر الوفاء .

وتخلف عن الجلسة طاهر الجبلاوي ،شفاه الله وعافاه هو والعوضي ،وغاب عنها محمد خليفة التونسي المغترب في الكويت ،وهو من أعز أصحاب العقاد،وتخلف عنها الصديقان الراحلان عبد الرحمن صدقي الشاعر الباحث الفنان الرهيف الذوق ،والدكتور عبد الحي دياب أشد الناس تعصبا للعقاد وحفظا لكل كلمة من كلماته .

وأعترف بأنني لست عقاديا حين يراد بهذا الوصف تكريم العقاد وحده دون غيره من معاصريه والمتقدمين عليه. ولكني أعرف للعقاد منزلته ،وأعرف منازل سواه من وجوه الحياة الادبية ،فلا أجد فضلا ظاهر النسبة الى صاحبه .

وقد احببت العقاد بعد نفور طبيعي منه ،سببه ان الصورة التي ارتسمت في ذهني عنه من اقوال الصحف واحاديث القوم ان العقاد « كاتب جبار » وانا كاره لكل جبار وانه عقاد في اسلوبه ، وانا ممن يضيقون بالتعقيد ويحبون الوضوح والبيان .ولهذا لم أحاول في مطالع حياتي الادبية ان أسعى الى العقاد ،لئلا يصيبني منه بطش جبروتي ، او تنالني من أسلوبه المعقد عدوى .ناهيك بأنني كنت أرى قصاد العقاد يتحزبون له أو يتشيعون لخصومه ،وليس من شيمتي التحزب او التشيع ،لانني كنت وما زلت مستقل الكيان والتفكير .

وعندما كنت أحرر جريدة « المقطم » دفع الي رئيس التحرير خليل ثابت باشا بكتاب جديد من كتب «المطالعات» اصدره العقاد ــ وكان زميله في مجلس الشيوخ ــ ورجاني ان اقرا الكتاب ثم اعرف به في باب المكتبة .وانتهزت الفرصة لاتحرش بالعقاد باسلوب الذم الذي يراد به المدح ،او المدح الذي يراد به الذم ، كيفما كان تأويل عباراته، فكتبت كلمة قلت فيها ان في آداب الفرنجة تعبيرا اصطلاحيا يطلق على النهمين في القراءة فيوصفون بانهم « دودة كتب » ،أي انهم يلتهمون الكتب ويقرضونها كما تقرضها ديدان العث. وقلت ان هذا الوصف شديد الانطباق على العقاد ،فهو دودة قراضة ،وقد استطاعت هذه الدودة العقادية من قراءاتها ان تخرج لنا كتاب « المطالعات » هذا !.

وظهر المقال في الجريدة ،وتوقعت ان يضيق العقاد بكلامي فيشكوني الى زميله في مجلس الشيوخ خليل ثابت باشا ،وهذا بدوره يكهرني على وصفي العقاد « بالدودة ». ولكن شيئا من هذا لم يحدث، فأيقنت ان العقاد تقبل كلامي في غير غضب ،ولم يقرا بين سطوره خبثا او حقدا ،وكان اكثر ما يثيره الخبث والحقد .

ولكنني لما رايت رجلي الادبيتين تحملاني الى جميع اعلام الادب في عصري ،سعيت في حذر الى ندوة العقاد الاسبوعية ،وكان مقصدي الاول ان أحدد معالم هذه الشخصية التي اتعامل معها في الكتب والصحف ،وتطالعني في المذياع وقاعات المحاضرات ،دون ان تتهيأ لي مشافهة مباشرة معها .وتوجهت الى ندوة العقاد في صحبة أخي الحميم العلامة الراحل الشيخ محمود أبي رية ،« لاتفرج » على العقاد . فماذا رايت ؟ .

رأيت الكاتب « الجبار » يناقش حتى طلاب المعاهد بصدر رحب وأبوة حانية محتملا جهلهم وضعف أعوادهم . فاذا هم واحد منهم بالانصراف ،ودعه العقاد بنفسه على باب داره في بشاشة صادقة .ورايت هذا الاديب «الباطش» شديد التهذيب في اسلوبه وعباراته ،فان استفز في نقاش، قال كلاما موجعا دون ان يغادر باب الادب والمنطق والفكر السليم .وهو يلجأ الى السخرية في كثير من مناقشاته كما حدث مرة في نقاش له مع العلامة الكبير الدكتور عمر فروخ على صفحات مجلة « الرسالة » ،وهو عالم فاضل لا نعرف عنه ترخصا في القيم ولا تخليا عن الرسالة الاكاديمية المثلى.

فقد رغب العقاد في ممازحته بأسلوبه الساخر ، فقال عنه « تستطيع ان تقدم من أحرف اسم او تؤخر كما تشاء » ! ولكن العقاد في عموميات كتاباته يناقش مناقشة علمية ، ويحاور محاورة منطقية ،الا اذا استفزه رجل كالشيخ أمين الخولي مثلا ،او اديبة كالدكتورة بنت الشاطيء ، فعندئذ يخرج قلمه من نطاق الهدوء الى نطاق الغضب فيصف الشيخ أمين الخولي ،الذي كان اماما لمسجد في المانيا ،بانه « لم يحسن في حياته صناعة كصناعة غسل الموتى » ! .

وفي ندوة العقاد ،ولم اكن كثير التردد عليها ،لمست فيه ترفعا لا عجرفة كبرياء ،وتواضعا يغريك بأن تحسب نفسك من انداده ،وهو الذي قل في عصره الند .

وقد ذكر العوضي الوكيل في كتاب «قضية السفود » ان العقاد الذي استهدف لحملات مصطفى صادق الرافعي وسفافيده قد مر بها جميعا مر الكرام، يحاول ان يرد عليها لانه راى في تجاهلها أبلغ رد على الرافعي ،مع ان الرافعي وصف العقاد بانه « جلف حقود مغرور سفيه أحمق . وليس ثمة من هو اكفأ منه وقاحة وجه وبذاءة لسان وموت ضمير » ! وكان في وسع العقاد ان « يبطش» بالرافعي ،كما كان في وسعه ان يقاضيه امام دور القضاء ،ولكنه راض نفسه على احتمال هذا الاذى ،ومذهبه المردد :

عداتي وصحبي لا اختلاف عليهمو سيعهدني كل كما كان يعهد

وقد قال هذا البيت بعد خروجه من السجن ليقول للناس « انني لم اتغير ، وان السجن لم يبدل مبادئي. فانا انا العقاد الذي عرفتموه وستعرفونه » ! .

واقول بين عضادتين ،انني استشهدت بهذا البيت كثيرا في مواقف شتى من حياتي لانني لم اجد ابلغ منه في تصوير حالي .

ومما يلقي ضوءا على شخصية العقاد انني سألته مرة: هل تعتقد ان الاسد الذي يولد في القفص يدرك معاني الحياة الحرة المنطلقة في الغاب . فجاوبني دون تفكير : طبعا يا أستاذ . فالاسد أسد ولو ولد في التياترو (يقصد السيرك)، والفأر فأر ولو ولد في قصر بكنهام! ثم اضاف ان الحيوان الواقع في الاسر كثيرا ما يمتنع عن الانسال اشفاقا على نسله من ذلة الاقفاص والاسوار ! .

وسألت العقاد مرة :ان من يقرا رايك في شوقي الشاعر منشورا في كتاب « الديوان »، ثم مدرجا في العدد الخاص من مجلة « الكتاب » عن الشاعرين حافظ وشوقي وهي المجلة التي كان يحررها عادل الغضبان — يستقر في رايه انك لم تجد في كل شعر شوقي فضيلة واحدة . فهل انت ما زلت على رايك فيه وهو انه عار عن الشاعرية لا يعرف التجديد ولا يحسن اللغة ولا يتبصر رسالة الشعر ؟لقد ندم المازني على ما كتبه في « الديوان » ،وكان ذلك في فصول اذاعها ثم نشرتها مجلة « الاذاعة المصرية » قبيل وفاته ، فهل اعتراك شيء من مثل هذا الندم ؟ .

فقال العقاد بصوته الجهوري : لقد كرهت شوقي لانه رجل بلا خلق !كنت اتصدى له في العلن ،ولكنه كان يحاربني بما يوزعه على المجلات الصفراء من مال وبما يستأجره من الاقلام والكتاب لمهاجمتي . فهو رجل دساس تعلم التآمر والغدر من وظائفه بباب اسماعيل، وأمثال هؤلاء لا ارحمهم . وقد أصبح شوقي تاريخا ،ولكنه بالنسبة لي لم ينطو بعد . ورأيي فيه هو الذي املى علي رأيي في شعره . فمن كانت هذه هي أخلاقه ،فلا بد ان يكون رايي في شعره سيئا ! .

وقد كانت لي لقاءات خاصة مع العقاد تحدثنا فيها في كل ما كان يعرض لنامن قضايا وأقول للتاريخ أنني لم اسمعه مرة يذم احدا ، فان ورد الذم على لسانه ، ساق الدليل المسبب على ما يقول . وهو مثلا قد اختلف مع سيد قطب بعد صداقة طويلة ،ولكنه كان شريفا معه في خلاف الرأي ،فلا ناواه ولا شمت فيه ،بل كان يذكره بالاطراء والحمد .

وقد سألته في اخريات ايامه : لماذا كففت عن الكتابة في الامور العامة ؟فقال : ان امتناعي عن الكتابة فيها فيه الجواب على استفسارك .

وكان العقاد يعرف قيمة الوقت ويحترم الذين يحفظون المواعيد . فان تواعد مع احد واخلف الميعاد ولو بدقيقة واحدة ،رفض العقاد مقابلته ايا كان . وحدث ذات مرة ان دعي اعضاء المجلس الاعلى لرعاية الاداب والفنون الى الاجتماع ،فانتظم الاعضاء جميعا في الموعد المحدد ،ومنهم طه حسين وتوفيق الحكيم والعقاد وابراهيم بيومي مدكور وغيرهم .وكانت هذه المجالس تنعقد برياسة الوزير ،وهي رياسة شكلية تقليدية لا تؤثر في عمل المجلس . ودقت الساعة معلنة السادسة والوزير لم يحضر . فقال العقاد لطه حسين : تول انت الجلسة !فاجفل طه حسين من هذا الاقتراح ، وقال: لننتظره ربع ساعة . فقال العقاد: «اذن اراس انا الجلسة . فتحت الجلسة» ،ومضى يصرف أمور المجلس دون انتظار أحد . ولما جاء الوزير ،خاطبه العقاد قائلا : لدينا أعمال عاجلة لا تحتمل الانتظار ،فانصرفنا الى انجازها . ثم اخلى مكانه للوزير ! .

ومما آسف له انني على صلتي الوثقى بكل من العقاد والدكتور احمد زكي ابي شادي ،لم انتبه الى خصومة قديمة بينهما أشار اليها العقاد في كتاباته بعد وفاة ابي شادي ،وسرد أطرافا منها العوضي الوكيل في كتاب «قضية السفود» . فقد كان العقاد على يقين ثابت بأن ابا شادي هاجمه في مجلة « ابوللو » ومجلة « الامام » لانه كان مأجورا من جهات يهمها هدم العقاد . واعتقد ان العقاد كان في هذا الظن شديد الخطأ ،لان الذي اعرفه من اخلاق ابي شادي ومن اطلاعي الكامل على ظروف حياته انه لم يكن ذلك المأجور . فأبو شادي قد بدد ثروة ابيه الطائلة في مشروعاته الادبية والعلمية ، كمجلة « ابوللو » و «مجلة تربية النحل» التي ما زالت تصدر في انجلترا حاملة اسم مؤسسها ابي

شادي ،ومجلة « التعاون » ،وفي نشر دواوين الناشئة من الشعراء ،وفي طبع كتب النقد والادب والطب ،وفي الانفاق على الجمعيات الادبية التي كان ينشؤها ويتعهدها بالسهر والرعاية والموالاة في نشاط عجيب ،وابرزها جماعة ابولو التي كان اول رئيس لها الشاعر احمد شوقي ،وخلفه في الرياسة الشاعر خليل مطران . وعندما هاجر ابو شادي الى امريكا ،كانت هجرته في حد ذاتها دليلا على انه رجل حر يبحث عن الحرية في مكان آخر ،ولو كان مأجورا لما فكر في هجرة كل رأس ماله فيها معاشه التقاعدي لا غير . ولئن كان له في العقاد راي ،فهو راي عبر عنه بدافع من ذوقه النقدي دون ان يتلقى توجيها من احد او ينال بسببه مكافاة ما . ففي هذه الواقعة ظلم العقاد ابا شادي ظلما شديدا ،وان كنت ابرئه من روح التحامل .

وكم كنت اتمنى جلاء هذا الموقف للعقاد في حياته ،ولكن ان فاتني ذلك والعقاد حي ــ فان الانصاف التاريخي يدعوني الى جلائه للجمهرة من القارئين .

ويعرف صحب العقاد وملازموه ،ولا سيما عامر العقاد انه كانت لي على العقاد العظيم دالة ،وانه كان يزورني في مكتبي ليقدم الي كتبه . وكنت بحكم هذه الدالة اقترح على العقاد موضوعات للكتابة، فيستجيب لي دون اعتراض. وقد اقترحت عليه عشرات من الموضوعات ،يتصل اغلبها بحياته الشخصية ،وعاداته، وصداقاته ،ومناهجه في التأليف واساليبه في المطالعة ،وآرائه في الشعر والنثر ،ومبادئه التي يدين بها ،وهلم جرا ،فكان من حصيلة هذه الفصول ثلاثة كتب صدر بعضها في حياته ،وصدر البعض الاخر بعد وفاته هي « حياة قلم » و« انا » و« رجال عرفتهم » ،كما اندرج بعض هذه الفصول في كتب عقادية اخرى مثل « اشتات مجتمعات » .

وكنت اعرف في العقاد روح الانصاف في النقد ،فضلا عن غزارة علم واتساع ابواب معارفه ،ونهمه الدائم للقراءة المتصلة . فاشرت عليه ان ينصف بقلمه الخالد مؤلفين اجلاء من اصدقائي فلم يرد لي طلبا . فكتب مقالا بصيرا عن « معجم الالفاظ الحراجية » لصديقي الامير العظيم مصطفى الشهابي ،كما تناول بالثناء المفرط مؤلفات طائفة كريمة اخرى من الادباء الجادين ،كالدكتور محمد صبري السوربوني صاحب « الشوقيات المجهولة » واحمد حسين صاحب « الطاقة الانسانية» والدكتور بدوي طبانة والشاعر العظيم محمود ابي الوفا وهلال ناجي والعلامة الدكتور زكي المحاسني ،كما انصف شعراء المهجر عن دراية وفهم وحسن ذوق ،في حين لم ينصفهم لا طه حسين ولا عزيز اباظة . وان كان محمد مندور لم يقصر في هذا الانصاف .

وبعد وفاة العقاد ،نهض ابن اخيه عامر بمهمة رعاية تراث العقاد ،فنشر ما كان مطويا من فصوله او متناثرا من مقالاته ،واعاد نشر كتبه في مصر وفي بيروت مستعينا بالحساني حسن عبد الله في مراجعتها والسهر عليها من الاغاليط المطبعية ،وجعل كتب العقاد جميعا في السوق ، فليس منها نافد او مفقود .

ولكن صورة العقاد في اذهان القراء ــ وهي صورة حاول تشويهها الكتاب «القزحيون» من ناحية، والكتاب الوصوليون من جهة اخرى (وقد رد على بعضهم العوضي الوكيل ردا مفحما في كتاب « قضية السفود ») ــ تحتاج الى مزيد من جلاء بجمع ونشر مقالاته السياسية التي تمثل آراءه الوطنية ومذاهبه الدمقراطية واتجاهاته الفكرية . فقد كان العقاد يحارب في ميدانين : ميدان الادب ،وهذا حفظت لنا آثاره ،وميدان السياسة وهو ما يكاد يفقد لبعد العهد به . ولا بد لعامر العقاد من ان يتوافر على حصر هذه الفصول وجمعها ونشرها كما فعل اسماعيل مظهر حين نشر ثلاثة كتب تضمنت مقالات اخي زوجته لطفي السيد باشا ، وكما فعل الشيخ علي عبدالرازق حين جمع مقالات شقيقه الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا ، وكما فعل محمد توفيق دياب في كتاب « اللمحات » الذي تضمن فصولا من كتاباته ،وكما فعل فؤاد صروف في كتابه «موعد مع التاريخ» .

والذين يحاولون تشويه صورة العقاد العامة والخاصة لن يبلغوا مأربهم اذا كانت آثاره كلها منشورة ،ومواقفه ضد كل ما هو غير انساني او اخلاقي حية في الاذهان .

القاهرة **وديع فلسطين**



حنين

●

غرست بحقلك الخصب الربيع
بذورا بالدموع وبالنجيع
لقد ولى الربيع امن اياب
الى مغناك ، يا روض الربيع
اذا حن المقيم الى اغتراب ،
حنيني لا يزال الى الرجوع
فما جوعي لطيب الزاد لكن
لرؤية موطني ظمئي وجوعي
لقد غرق القطيع ، فكيف ينجو
وفي ليل الدجى راعي القطيع

بوانس ايرس **عبد اللطيف الخشن**

العلم

محمد العدناني

●

أينع الشعر فيك والشعراء ... يا بلادي ، وابدع الخطباء
كم شدونا فأصفت الطير في الايك ... واشجى قلب الزمان الغناء
وسكبنا الانغام في اذن الدهر ... فأجت في قلبه الاهواء
والسواقي أخذن عنا لحونا ... فأجاد الخرير فيها الماء
ولحصبائها يدغدغها الماء ... حداء ، تجلى به البرحاء
ووصفنا الحسان حتى اغرنا ... ظبيات الفلا ، وحمت ذكاء
وسقينا من وحينا البدر راحا ... فانتشى البدر غبطة والفضاء
ورسمنا الهوى بريشة الهام ... فزادت من زهوها حواء
واذعنا القريض فاستمع الروض ... اليه ، والزهر ، والانداء
وتثنت فيه الاماليد دلا ... كعذارى قد هزهن الثناء
لو اردنا نظم النجوم لحلت ... جيدها بالقلائد الجوزاء
واثرنا في البدر حبا دفينا ... فاذا البدر شعلة حمراء
يلهب الوجد وجنتيه التياعا ... ورسول الهوى اليها الضياء
بالشعاع اللماح يشرح ودا ... عكسته على المحيا السماء

يا بني قومي الاماجد ! مهلا ... لا يهزنكم علينا الثناء
قد خلبنا نهى الشعوب بيانا ... فازدهانا الاعجاب والاطراء
وسكبنا على الطروس من الوحي ... مدادا ، فكانت الصهباء
وثبات الخيال قد تثلج الصدر ، ... ولكن ما في الخيال غناء
هو كالحلم لذة ، وهل الاحلام ... الا طفاوة او هباء
اترانا نسقي المريض قصيدا ... عندما يعوز المريض الدواء
ام ترانا ندعو على الداء شعرا ... فيجليه عن حشاه الدعاء
فاطلبوا العلم ايها العرب ... ان العلم فيه الحقيقة الفراء
فحياة الشعوب علم جني ... مهره البحث ، والضنى ، والعناء
وليال يؤرق الجفن فيها ... ويذود السبات الاستقصاء
ويشد الاعصاب صبر عجيب ... في دجاها ، وتثبت الاعضاء

يا بني يعرب ! عيون المعالي ... شاخصات اليكم ، والسناء
ان فجر الوثوب قد لاح في الافق ... ووافى بيمنه البشراء
فأرونا اسمكم على صفحة الخلد ... فلن يظلم الدؤوب القضاء
وأرونا في حلبة العلم منكم ... كل فذ يعنو له النظراء

واجعلوا منكم المجلي دوما فنهاكم يشع منها الذكاء
واقتلوا الكيمياء بحثا، ودرسا فاساس التفوق الكيمياء
واجعلوا عصبة الجراثيم تجلو عن حمانا ، وتصرع الادواء
وانفحونا بالمعجزات تتالى باهرات ، تاتي بها الكهرباء
واجذبوا الغرب نحوكم ، ومناه ان تروي ابناءه الفيزياء

اطلقوا «المنشآت في البحر كالاعلام» ليست يفوتها ميناء
واملأوا باختراعكم ثبج اليم سفينا ، بها يفطى الماء
واقحموا اللج ماخرين ، وارسوا سادة ، حيث ينبغي الارساء
وازحموا الحوت في الخضم بغوصاتكم تحتفي بها الانواء
واجعلوا البيد بالسدود جنانا وارفات الظلال ، يأت الثراء
انما النيل والفراتان كنز سوف تمحى بمائها البيداء
وانبشوا الارض ، لا تبقوا دفينا في حشاها يجني عليه الخفاء
ما بغير المناجم اليوم شعب قام من مجده الاثيل بناء
كل حرية تشاد على غير فلز ، حرية شوهاء

اطلقوا الطائرات تكتسح الافاق حتى يراع منها الفضاء
لا تخلوا للنسر فيه مجالا ودعوها بكم تضيق الجواء
واقصفوا كالرعود فوق الثريا واسبقوها ان هبت النكباء
فازيز الالات اوقع عندي من لحون يشدو بها الشعراء
ودوي الرعاد يخترم الاخصام ليست تجيده الورقاء
وهزيم القذائف الحمر تنقض فناء ، يمنى به الاعداء
هو عندي الايقاع يخلب لبي وهو عندي الالهام والايحاء
فاذا شط عن حماي حراء فبطون المصفحات حراء

يشتهي قلبي السلام ، ولكن جرحوه فاجت البغضاء
ليس يجني البغاة الا المنايا كامنا في نيوبها الافناء
رب ! لا تبق في البرية ديارا مناه التنكيل والايذاء

ايها الشعر ! يا حبيبي عفوا انا لولاك ، ما لذكري بقاء
بك توجت هامتي باكاليل من المجد ، فاح منها الاباء
بات في العلم خيرقومي فاصبحت اليه ادعو ، ففيه الفناء
ان تكن فيه للبلاد حياة فعلى الشعر ، والبيان العفاء
وعلى عزي الذي رحت ابني بك يا شعر ، دمعة عذراء
فانا ، والقريض،والمجد،والاحلام زهرا ، والاهل ، والابناء
والاماني ، والخلود المرجى لك يا موطني جميعا فداء

يا بلادي!حسبي غدا فيك رمس تتلاشى في تربه الاعضاء
بك يمسي دجى الضريح نهارا وحضيض الاجداث فيك سماء

محمد العدناني

الحزب الوطني المصري وابو ماضي

بقلم جورج ديمتري سليم

* * *

المقالة الثانية

كانت الفترة التي عاشها ابو ماضي في مصر فترة تكوينه العقلي ،كما كانت فترة تكوينه البدني . فان الصبي ذا الحادية عشر الذي نزل البلاد غرا عام ١٩٠٠، ودعها عام ١٩١١ شابا في الثالثة والعشرين ،وقد تحددت معالم فلسفته للحياة بمفاهيمها الاجتماعية والسياسية . وكانت الفترة ذاتها فترة تكوين الحزب الوطني . فان هذا الحزب الذي كان موجودا فعلا في مصر منذ ١٨٩٤ ــ كما ذكر مصطفى كامل ــ اصبح عام ١٩٠٧ حزبا رسميا منظما ،له لائحته ،ورئيسه ومجلس ادارته ،واعضاؤه .

فكأن ابا ماضي كان على موعد مع الحركة الوطنية لينمو واياها في وقت واحد ،حتى اذا ما بلغت هي كمالها ، وبلغ هو سن الرشد ،اختار ان يكون لها . وكيفلا ،والحركة حركة الشباب،وحركة الاغلبية الشعبية التي هو منها، وقضية مصر قضية عادلة الا ــ كما قال هو ــ « معترض في قلبه مرض » . فوق هذا كان لمصر على ابي ماضي حق : فانها استضافته ، فترعرع بين ربوعها ،ونعم بخيرها ،وطال مقامه فيها لان اهلها قوم كرام

ودادهم على الايام بـاق ... وجارهم عـزيـز لا يضـام

فلا عجب اذن ،ان يتعلق بها ،ويعطف عليها كواحد من ابنائها ، ويعمل شيئا من اجلها ليرد اليها بعض جميلها .

سمع الاسكندريون ابا ماضي مرة يلقي بحماس ،في احتفال ،قصيدة جاء فيا هذه الابيات التي تذكرنا كلماتها وموسيقاها بالاناشيد الوطنية :

ايا « مصر » افديك بالانفسين ... بروحي وما ملكتـه يـدي
احبك حتى تجف البحـار ... ويمشي الفنـاء الى الجلمد
وما انا وحدي المحب الامين ... فكم بي في الناس من مقتد

ونسمعه ،ونحن نقرأ في « ديوان تذكار الماضي » ، يخاطب النيل بعدما ملأ هذا النهر الخالد نفس شاعرنا هيبة ،اثر وقفة على شاطئه ،فيقول له :

وما انا بالعبد الذي يرهب العصا ... ولكنني حر تروع بـوادره
ايا « نيل »فامنحني على الحق قوة ... فما سود الضرغام الا اظافـره
وهبني بأسـا يسكن الدهر عنده ... فقد طالما جاشت علي مناخره

ثم ينتقل ابـو ماضي بعد هذه الابيات الى وصف المحتل الظالم وعونه ،والى شعب مصر المظلوم ،فيقول :

فـ «غورست» في«مصر»يسدد سهمه ... اليه ، و «قناص الوحوش»يضافره
يلجون في اعناته ، فـاذا شكـا ... يصيحون :انالشعب قد ثار ثائره
لقد هزأوا لمـا تنبه بعضـه ، ... فلم ذعروا لمـا تنبـه سائره
رعى الله من ابنائه مـن يذود عن ... حماه ، ومن اضيافه من يظاهره
هم بعثوا فيه الحيـاة جـديدة ... فشـدت اواخيه ، وعزت اواصره
وهم اسمعوا الايام صوتا كانمـا ... هو الرعد تدوي في السماء زماجره
وهم اطلقوا اقلامهم حين اصبحت ... مكبلة اقـلامه ومحـابـره
كذلك ان يـعدم أخو الظلم ناصرا ... فـلن يـعدم المظلوم حرا يناصره

ونسمعه كذلك في قصيدة « عام ١٩١٠ » يقول :

ان لم اذد عن ارض «مصر» موفقا ... اودى بآمالي الـزمـان موفقـا

ولقد دهش بعضهم وقتها من موقف ابي ماضي هذا، ومن اندفاعه في الدفاع عن بلاد لم يولد فيها ، ولا يدين بدينها ،ومن ايمانه الصادق بارادة شعبها ،فاستنكر عليه الامر، و «وافى يسوق اليه التعنيف والعذلا »، وسائله:

حتام تدفع عن «مصر» ولست لها ... باين ، ولا ناقة تبغي، ولا جملا ؟!

ولكن ابا ماضي الشاب العاقل المتزن لم يأبه بهذا اللوم ويقول لنا :

فلذت بالصمت حتى لاح لي علم ... ضاف تداعبه ايدي الصبا جذلا
وقلت : انظر ! فولى شطره فرأى ... رسم الهلال ، فوارى وجهه خجلا
وعدت ارثي له ممـا الـم بـه ... وعـاد يعثر في اذيالـه خيـلا

ويمضي ابو ماضي في نظمه لينقل الينا في الابيات التي تلي هذه جوابه على سؤال احد اليائسين المتخاذلين :

وقائل : كيف ترقى «مصر»؟قلت له: ... حسب «الكنانة»شعب يعشق العملا
يقظان لا جزعـا ممـا يحـاذره ... فمن يخف فشلا في سعيه فشلا
ثبت العزيمة لا يلوي بهمتـه ... كيد الطغام ، ولا بعد المرام ، ولا
شعب يسابق نحو المجد هاجسه ... اني وجدت التواني يخلق الكسلا
شعب احب اليه الموت محترمـا ... من ان يعيش طوال الدهر مبتذلا

كان ابو ماضي واحدا من اولئك الشعراء الذين عرفوا ما لـ « فنهم الجميل »من فاعلية في تحريك النفوس ،فكرسوه في ذلك العهد للاسهام في اذكاء جذوة الحرية بتلك الوطنيات التي قراها لهم معاصروهم باعجاب على صفحات الجرائد، وقرانا نحن بعضها مجموعة في دواوين .

والمتصفح « ديوان تذكار الماضي » الذي طبعته لابي ماضي المطبعة المصرية ،بالاسكندرية ،في منتصف عام ١٩١١ لن يفوته ملاحظة ان هذا الديوان قد تضمن قصائد سياسية دون ان يتضمن « بابا السياسة » . ذلك ان شاعرنا تعمد سنتها ،على ما نعتقد ،عدم افراد مثل هذا الباب في ديوانه ،كما تحاشى ايضا ايراد قصائد معينة له فيه ،حتى لا يواجه انظار الرقابة اليه ،فتنال منه كما نالت من غيره.

فهو قد راى كيف صودر « وطنيتي » ،وكيف طورد الغاياتي ، وكيف حوكم الشيخ جاويش والزعيم محمد فريد، وكيف حبس الاول ثلاثة اشهر والثاني ستة ،وكيف كانت الجرائد توقف ،وكيف كان اصحاب المطابع يستدعون ، وكيف ... ،وكيف ... ،فاحتاط من بطش رقابة الاحتلال الغاشمة التي قال عنها في بائية له مجهولة :

كفى «مصر» ان الفاصبيها حقوقها ... اعادوا لها زمـان « المراقب »
فعند شروق الشمس نكبة شاعـر ... وعند غروب الشمس نكبة كاتب

لهذا نرى ابا ماضي ادرج قصيدة وقال في باب « الادب والاجتماع » ،عندما قدم ديوانه للنشر ،وادرج « الذئاب الخاطفة » و«ايها الظلم »، و « مصر والشام»،

و «عام ١٩١٠» ، و«ابا نيل» في باب « اغراض شتى » متناسياً في الوقت نفسه قصيدة « مصر والاحتلال » اتقاء ما قد يترتب على ادراجها .

بيد ان المبررات التي حكمت على ابي ماضي ،عهدئذ، بأن يتناسى قصائد له نظمها ،لا تحكم علينا نحن الان بأن نتناساها ايضا . فليس من الانصاف ،لا للحركة الوطنية حين نؤرخها اليوم ،ولا لابي ماضي حين ندرسه في شبابه، ان تظل قصيدة مثل « مصر والاحتلال » مدفونة بعدما نشرتها « الشعب » القاهرية ،في ٢٧ ــ ٣ ــ ١٩١٠ بمقدمة تنم رغم ايجازها الشديد ،عن راي اسرة تحرير هذه الجريدة في ابي ماضي . قالت، هذه الجريدة ،وكانت «لسان حال الحزب الوطني » ،ما نصه :

«تفضل حضرة الشاعر الكبير المطبوع صاحب الامضاء فأرسل الينا هذه القصيدة العصماء يصف فيها مركز مصر ازاء الاحتلال بما عهد فيه من رقة الشعر وجزالته ،فنشكر له هذا الاحساس الشريف ، ونثني عليه الثناء الجميل.»

فاذا لاحظنا ايضا ان « الشعب » نشرت القصيدة على يسار مقالة « حول الدستور » لمحمد فريد ــ ولم يأت ذلك عفوا على ما نظن ــ ثبتت لنا تلك المكانة التي وصل اليها ابو ماضي ،عن جدارة ،واعترف له بها مبكرا في حياته.

ف « مصر والاحتلال » اذن تستاهل نقلها هنا كاملة ، لانها من احسن وطنيات تلك الحقبة ،ومن عيون «مصريات» ابي ماضي ،ولانها بمفردها ،تشهد على ما كان لناظمها في شبابه من طبيعة شاعرة ،وشجاعة نادرة ،ووطنية صادقة.

خلني استصرخ القوم النياما ... انا لا ارضى ل «مصر» ان تضاما
لا تلم في نصرة الحق فتى ... هاجه العابث بالحق فلاما
او فلمني ان قلبي كلما ... زدت في تعنيفه زاد هياما
سوف اشكو الهم ان احرجني ... ربما خففت الشكوى السقاما
وقفة في شاطىء « النيل »معي ... نقرىء « النيل » التحايا والسلاما
واناجيه اماني امة ... منعوها ماءه الا لماما
علـه يبعث من اسراره ... قوة تبعث في الشعب اعتزاما
قسما ب « النيل » او ان به ... ما بنفسي من جوى سال ضراما
لست انسى ليلة بت بها ... والاسى يدفع عن عيني المناما
ارقب الاقمار في افلاكها ... مثل ما يرقب راعيها السواما
لم يؤرقني اشتياق او هوى ... ما الهوى بغية من بالمجد هاما
راع نفسي ان « مصرا » روعت ... بأبي « مصر » ومن فيها اقاما
حسب « مصر » انها الارض التي ... امن الله بها « البيت الحراما »
وبنيها انهم نسل الالى ... عركوا الدهر فتيا وغلاما
كرمت « مصر » واهلوها فما ... نقضت عهدا ولا خانوا ذماما
كان للاحرار فيها موئل ... يعصم الحر فلا يخشى اهتضاما
ثم هاض الدهر من جانبها ... انما يهتضم الدهر الكراما
اربي « مصر » على رغم العدا ... لست اعني بالعدا الا الطغاما
لست مصريا ولكن نسبة ... بيننا تجمع « مصرا » و«الشاما»
امة ترتقب استقلالها ... مثلما يرتقب الصادي الغماما
ما لهم يسعون في ايذائها ... ما رمت سهما ولا سلت حساما
زعموا اصلاحها وهي التي ... ما شكت غيرهمو داء عقاما
حبسوا « النيل » على نفهمو ... واعاضوها من الري الاواما
فاذا ما صرخت تشكو الصدى ... جعلوا القانون في فيها لجاما

انكروا خطوتها نحو البلا ... « رب ذي تب عن الحق تعامى »
ورموها بالتواني ويحهم ... اخمول انها تهوى السلاما
قد خلت تسعة اعوام على ... شقوة «النيل» سوى عشرين عاما
وانقضى العمر وأما تنجلوا ... فالام ايها القوم الاما
كبلوا اقلامنا جهدكمو ... وامنعوا الالسن والصحف الكلاما
واذا عز عليكم اننا ... في ونام فانشروا فينا الخصاما
واذا عز عليكم اننا ... في حياة فابعثوا فينا الحماما
ينزع الارواح من اجسادها ... او فكونوا انتم الموت الزؤاما
انما ينقلب الامر الى ... ضده ان جاوز الامر التماما

ولنا أن نتساءل اذا كان أبو ماضي قد دخل فعلا الحزب الوطني ،وصار عضوا مقيدا في قائمة أعضائه . فما لا شك فيه أنه آمن بوطنية الحزب ،فجاهر بها تماما كما جاهر بها شعراء الحزب الرسميون. ففي اشعاره التي نظمها في الفترة المصيرية من حياته صدى واضح لمطالب هذا الحزب ، ولسياسته ،ولنشاطه ،ولاقوال رجاله .

طالب ابو ماضي المحتلين بالجلاء في قصيدته السابقة فقال :

قد خلت تسعة اعوام على ... شقوة النيل سوى عشرين عاما
وانقضى العمر ولما تنجلوا ... فالام ايها القوم الاما ؟

وطالب بالدستور في قصيدة « مصر والشام » ،بعد « معاهدة بانكوك » التي عقدت في ١٠ ــ ٣ ــ ١٩٠٩ ــ ، والتي الغيت بمقتضاها الامتيازات البريطانية في سيام ، فقال :

الى م تمنع الدستور « مصر » ... وقد كادت تفوز به « سيام »

وكان الجلاء والدستور مطلبي الحزب الاساسيين . الا ان الجلاء ،الذي أصر عليه الحزب الوطني « حتى صار أصبح تعريف له أنه « حزب الجلاء » ،لم يلق من أبي ماضي نفس الاهتمام الذي لقيه الدستور منه . ونعزو هذا الى ان زعامة الحزب الوطني كانت هي المطالبة بالجلاء ،باسم الشعب بينما كان الشعب نفسه هو المطالب بالدستور ،تحت اشراف الحزب .

ففي أوائل عام ١٩٠٨ ،قامت في مصر « حركة اجتماعية للمطالبة بالدستور » أسفرت عن جمع عشرات الالاف من العرائض ،وقع عليها ٤٥ الف مواطن ،قدمها محمد فريد الخديوي نفسه في ٢٥ أبريل (نيسان) . وصادف ان قامت ايضا ،في نفس العام ،حركة في تركيا كان نتيجتها اعلان عودة الدستور العثماني في ٢٣ يوليو (تموز) ،بعد الغاء مؤقت دام ثلاثين سنة . فألهب هذا الاعلان حماس الشعب المصري ،وحفزه الى جمع دفعة جديدة من التواقيع لتقديمها الى الخديوي ،هذا في حين بدأ الشعراء الوطنيون يؤهلون بعودة الدستور منتظرين نظيره في مصر . وفي هذا المجال نظم ابو ماضي « تحية الدستور العثماني » التي منها:

الى حيث انقت يا زمان المظالم ... ولا عدت يا عهد الشقا المتقادم
ثلاثون عاما والنوائب فوقنا ... مخيمة مثل الغيوم القواتم
ويا ايها الدستور اهلا ومرحبا ... « على الطائر الميمون يا خير قادم»
طلعت علينا كوكبا غير آفل ... على حين ان الشرق مقلة هائم
اهبت ففر الظلم بالارض هاربا ... ونكس خزيا راسه كل ظالم

توهم قوم انما الشرق واهم ... وانك يا دستور اضغاث حالم

وفي ميمية أخرى مجهولة ،عنوانها « غادة الحرية » خاطب أبو ماضي الضباط الاحرار الاتراك ،عقب نجاح حركتهم ، وذكرهم بمدحت باشا (١٨٢٢ ـ ١٨٨٤)،«ابي الدستور العثماني » ،الذي نفاه السلطان عبد الحميد (١٨٤٢ ـ ١٩١٨ حكم ١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) الى الطائف حيث لاقى مصرعه ،فقال :

معشر الاحرار انتم خير من ... يرتجى فينا اذا الخطب ادلهم
ولانتم ارجح الناس حجى ... ولانتم اجمل الناس شيم
ان ب « الطائف » قبرا واضحا ... جاد ذاك القبر منهل الديم
لو درى ساكنه ، من طرب ، ... جاءكم يسعى على غير قدم
. . . . ان فيه . . . ... واسالوه تستفض منه الحكم

وفي قصيدة أخرى مجهولة ايضا ،عنوانها «عيدالحرية العثماني» ،نشرتها في ٢٤ ـ ٧ ـ ١٩١٠ « العلم » ،لسان حال الحزب الوطني،تغنى ابو ماضي بعيد الدستور،وبشهر يوليو (تموز) ،شهر الحرية الذيتعيد فيه الولايات المتحدة الاميركية باستقلالها منذ ١٧٧٩ ،وفرنسا بثورتها منذ ١٧٨٩ ،فقال :

عيد اذا عد في الاعياد زينها ... كالشمس في الشهب هل للشمس امثال
عيد رآه ذوو الحاجات فابتسموا ... شوقا ،وكم لذوي الحاجات آمال
تفاءلوا ان « تموز » يكون لهم ... عيدا كغيرهم ، قد يصدق الفال
« تموز » انت منيل الشرق بغيته ... في حين اسمح قوم فيه بخال
بتنا نود شهور العام اجمعها ... « تموز » ، وان يوم العيد اجيال

« كانت الاشهر الاولى من عودة الدستور ـ كمايقول توفيق علي برو فيكتابه «العرب والترك فيالعهد الدستوري العثماني » ـ ممتلئة بروح الحماس والمحبة والاخوة بين الطوائف ،وعبرت الجماعات والافراد عن شعورها بمختلف الوسائل . فقد أعرب السوريون في الارجنتين عن ولائهم للعهد الجديد بفتح اكتتاب عام للتبرع بسفينة حربية هدية للبحرية العثمانية ،وشكل أهالي بيروت حرسا وطنيا لمساعدة الجيش عند اللزوم ،وفي العراق ،ابتاع طالب بك النقيب ،نائب البصرة الجديد من ماله الخاص ،مركبا بخاريا ،اهداه الى الحكومة كي تستخدمه في المحافظة على شط العرب . . .وفي طرابلس الشام تضافرت أيدي الترك والعرب ،واصبحوا يساهمون سوية في الاعمال الخيرية . وحتى عبد الحميد نفسهأعرب عن اخلاصه للدستورورغبته بالحفاظ عليه . »

اما في مصر ،فيفيدنا قنيبر بأن محمد فريد خطب بالاسكندرية فهنأ الامة العثمانية باعلان عودة الدستور ، مناديا « ولتكن الاستانة كعبتنا السياسية من الان ،فنحن من الامة العثمانية ،لنا امتيازات لا تخرجنا عن كوننا عثمانيين . » واستنكرت بعض الاحزاب هذا التصريحالذي لم يكن جديدا في سياسة الحزب الوطني . فقد اكد الحزب، منذ ظهوره ،تبعية مصر لتركيا ـ لكسب الجلاء ،وحارب من يدعو الى الانفصال عنها . وفيهذه المناسبة، شارك ابو ماضي في التعبير عن شعوره ،وعن شعور العرباجمالا والحزب الوطني خاصة ،بالولاء لتركيا ،عندما خاطب السلطان « عبد الحميد بعد أعلان الدستور » قائلا :

ابا الشعب اطلع من حجابك يلتقي ... بطرفك مثل العارض المتدفق
تطلع تجده حول قصرك واقفا ... يحدق تحديق المحب الموفق
يهش لمرآك الوسيم ، وانما ... يهش لمرآى الكوكب المتالق
ويعشق منك البأس والحلم والندى ... كذلك من ينظر الى الحسن يعشق
تفرق عنك المفسدون ، وطالما ... رموا الشعب بالتفريق خوف التفرق
وكم اقلقوا في الارض ، ثم تراجعوا ... يقولون : شعب مقلق اي مقلق
يطارحك الحب الذي انت اهله ... وحسبك منه الحب غير مزوق
وها جيشك الطامي يضج مكبرا ... بما نال من عهد لديك وموثق
ويا ايها الملك المقيم ب « يلدز » ... ملكت قلوب الناس بالعرف فاعتق
ويا حبذا عيد الجلوس فانه ... اجل الذي ولى واجمل ما بقي

ولكن عبد الحميد سرعان ما تنكر لدستور ١٩٠٨كما تنكر لدستور ١٨٧٦ من قبل ،فقامت حركة في الاستانة ، عام ١٩٠٩ ، لتخلعه ، وتخرج اخاه « رشاد » (١٨٤٤ ـ ١٩١٨) من سجنه،وتوليهسلطانا باسم « محمد الخامس» (١٩٠٩ ـ ١٩١٨). وفي هذا ينظم ابو ماضي « فتنة ١٣ أبريل (نيسان) » التي بارك فيها الحركة ،ولام عبد الحميد ثم قال :

يا « رشاد » الملك تهنئة ... بالذي اوتيت من نعم
انت ک « الصدّيق » اسكنه ... فضله في السجن من قدم
كن لهذا الشعب « يوسفه» ... ينج من عدم ومن عدم
انت للشورى نعوذها ... بك من عات ومن نهم
فتقلد سيف جدك « عث ... مان » ، جد البيض والخذم
وتول الملك من امم ... وبحبل الله فاعتصم
دمت يا خير الملوك له ... غير ما هم ولا سقم

وازداد ابو ماضي ولاء للسلطان الجديد ،فتمثله ،في عامه الثاني من حكمه ،هارون الرشيد ،وتمثل الاستانة ، مقر الخلافة الاسلامية وقتذاك ، بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، فقال في « عيد الحرية العثماني »:

الملك لاق به من كان (رشاد) حجى ... هيهات ما ل «رشاد» الملك امثال
« دار السلام» سقتك السحب هامية ... ما دام للسحب في الاكوان تجوال
اني ارى فيك «بغدادا »،وابصر في ... برد «الرشيد» «رشاد »الملك يختال
يا درة الشرق دمت الدهر حالية ... فالشرق لولاك امسى وهو معطال

« في اواخر سنة ١٩٠٩ ، واوائل سنة ١٩١٠ ـ كما يقول الرافعي ـ شغلت الرأي العام مسألة كبرى ، تتصل بحياة البلاد المالية والسياسية ، ونعني بها مشروع مد امتياز قناة السويس . وفحوى هذا المشروع ان المستشار المالي البريطاني « مستر بول هارفي » ، اخذ يفكرـبهواهـ في وسيلة يسد بها حاجة الحكومة الى المال . فدخل في مفاوضة مع شركة قناة السويس ، لمد امتيازها اربعين عاما (من ١٩٦٨ الى ٢٠٠٨)، تلقاء اربعة ملايين من الجنيهات تدفعها الشركة للحكومة ... وقد ظل المشروع في طي الخفاء زهاء سنة ، وكان في عزم الوزارة انفاذه بسرعة ، حتى لا يزعجها احتجاج الصحف الوطنية. ولكن « فريدا » تمكن من الحصول على نسخة من المشروع في اكتوبر سنة ١٩٠٩ ، فبادر الى نشرها في « اللواء» ، ثم قفى على اثرها ببيان اسرار المشروع واسبابه ، ومبلغ الغبن الذي يصيب مصر من ورائه ، وشرح ذلك في سلسلة

حنين

على بردى الشام وساكنيها ... سلام الارض والسبع الطباق
قديما جلق قصدت علاها ... قوافل من جياد او نياق
تحط رحالها فتميس تيها ... اذا الانفاس هبت بانشقاق
ربيبك يا دمشق انا فصبي ... دموعك لاصطباحي واغتباقي
فكم حنت للثم الخد روحي ... وشامتها ولو جزء الدقاق
اذا ما الشوق هز فؤاد صب ... فللفيحاء يهتز اشتياقي
يجر الماء يا بردى سلاما ... تمونه الجداول والسواقي
متى يا رب يبعث احمد كي ... يشق الفجر إسراء البراق
يهب على فلسطين سراعا ... يجود على المصلى بانعتاق
ولي قبل الغروب منى لقاء ... ينيط مجزعا بطلى الصداق

هوستن ـ تكساس امريكا ... سليمان داود

من مقالات مستفيضة .»

وتبع ذلك ان شن الكتاب والشعراء الوطنيون حملة عنيفة على المشروع ، كان من جرائها رفض « الجمعية العمومية » المشروع باجماع الاعضاء ، في جلستها بتاريخ ٧ ـ ٤ ـ ١٩١٠ .

وكان لهذا الرفض وقع حسن في نفوس المصريين. ورأى بعضهم ، في الاسكندرية ، ان من واجبه تكريم نوابه الذين يرجع اليهم فضل رفض انفاذ المشروع ، فوجه « دعوة الى الاسكندريين » هذا نصها :

« تعلمون ـ حفظكم الله ـ مقدار ما ابلاه البطلان العظيمان اسماعيل باشا اباظه، وعبداللطيفبك الصوفاني، وزملائهما ، من البلاء الحسن في « الجمعية العمومية » ، ومدافعتهم عن حقوق الامة ، ورفضهم « مشروع القنال»، بعدما اظهروا للعالم اجمع مقدار ما يصيب الامة من الاذى والمضار اذا قبلته. تعلمون عن كل تلك الاعمال التي اخرست السنة كل مكابر ناكر لكفاءة الامة وعظيم مقدرتها ، تلك التي برهنت باقوى دليل على ان المصري لو اعطي من الراي النافذ والحرية في العمل في شؤون بلاده لخدمها باحسن ما يخدم به المرء بلده ، ولسما بها الى اعلى عليين .

ولقد اقترح حضرة الوطني الغيور « محمود افندي حمدي السخاوي»، على صفحات «الشعب»، عمل مظاهرة يقوم بها الاسكندريون تكريما لنوابهم الاماجد الذين جاهدوا في سبيل امتهم خير جهاد ، وطلب من كل وطني حر الاشتراك معه في القيام بهذه المظاهرة قريبا .

ونحن نستحسن هذا الاقتراح غاية الاستحسان، ونضم صوتنا الى صوته ، وندعو اخواننا الاسكندريين لمساعدته للقيام بالواجب نحو نوابهم الاحرار ، لان مثل هذه المظاهرات اعظم مشجع لهؤلاء الابطال على السير في طريق جهادهم ، وتعد بمثابة شكر واستحسان لما اوتوا به من جلائل الخدمات . وأملنا فيهم ـ وهم المشهورون بالغيرة الوطنية والحمية الملية ـ ان يسرعوا لاجابة هذه الدعوة ، وانا لذلك منتظرون . وفقنا الله جميعا لصالح الاعمال . آمين .»

وقد وقع هذه الدعوة وطنيون ستة ، هم : محمد عوض جبريل السكندري ، محمود حسن الدرسلي، السيد الشيمي ، محمد طاهر ، محمد علي منصور وكيل «المنار»، ايليا ظاهر ابو ماضي بشارع راغب باشا .

ولا يكتفي ابو ماضي بالاشتراك في توجيه هذه الدعوة بل يسجل نصر الوطنيين في معركتهم ضد مد امتياز القنال، فينظم في قصيدة «عام ١٩١٠»:

وسعوا الى سلب «القناة» فاخفقوا ... سعيا ، وشاء الله ان لا نخفقا
عرض الحساب «المستشار» ولم يكن ... لولا السياسة حاسبا ومدققا
ايكون غاصبنا ويزعم انه ... امسى علينا محسنا متصدقا

ويسجله ثانية في قصيدة «ايا نيل »، التي نشرتها « العلم » نفس العام ، فيقول :

الم يكن في يوم « القناة » ثباته ... دليلا على ان ليس توهى مرائره
يعز على المصري ان يحمل الاذى ... وحاضره يابى الهوان وغابره

واشنطن ... جورج ديمتري سليم

الملكة زنوبيا

بقلم سكينة انشهابي

* * *

احساس غامض يعتريني وانا اقف امام تراثنا القومي ،او اقرا عن انسان خالد اثار صفحات من تاريخنا القومي الانساني .مثل هذا الاحساس خامرني وانا اقرأ « الملكة زنوبيا » للشاعر عدنان مردم فخيل الي ان صور البطولة العربية واحدة في كل زمان ومكان بنبل مقصدها وعظيم تضحياتها .

موضوع قومي تلعب دور البطولة فيه امراة عربية ارادت ان تعيش بلادها حرة مستقلة بعيدة عن التبعية والتسلط. فناضلت وبذلت في هذا النضال كل ما تملك من فكر وعزيمة وشجاعة .واستطاعت ان تقف امام روما وان تشيد مجدا خالدا ابد الدهر .

تبدأ المسرحية بلقاء بين وهب اللات ،ابن زنوبياوبين خطيبته خولة . وفي هذا اللقاءنفهم ان وهب اللات يحب خولة حبا يغمر عليه كيانه ولكن خولة تعيب عليه تهالكه في هذا الحب ، تريده بطلا مغوارا ليخدم بلاده ويصل الى مراقي المجد .

تابى الرجولة ان تفا — لط او تمد يد الذليل
ليس الهوى خفض الجنا — ح وبث ادواء العليل

ونستشف من كلام خولة ان وهب اللات لا يحمل من صفات البطولة ما يرضي مطامحها ،ومع ذلك تحاول ان تبعث فيه هذه الصفات لتخلق منه الرجل الذي تريد :

خذ عن ابيك طموحه — ودع الصغائر للصغير

ويمهد لقاء وهب اللات وخولة لموضوع المسرحية ، ويبدأ هذا الموضوع فعلا حين تدخل زنوبيا ومستشاراها وتأخذ بمداعبة ابنها وخطيبته ،متحدثة عن سحر الربيع مستمدة الحكمة من هذا السحر .وتتجلى لنا زنوبيا من خلال حديثها مشغولة الفكر قلقة على جيشها الذي يخوض معركة مع العدو ،ولكن قلقها هذا لم يطل حيث تأتي اخبار النصر المؤزر .

ولا تكاد انباء هذا النصر تصل الى مسامع كسرى حتى يسرع لارسال هدية الى زنوبيا معبرا عن مشاركته للشعب التدمري في فرحته .ولكن زنوبيا لا تثق به ولا تفرح بهديته لان تجاربها معه جعلتها كثيرة الشك في صداقته دائمة الحذر منه .ومع ذلك فانها ترد التحية بمثلها مبينة لكسرى ان هم الشرق واحد امام العدو الغربي .

لم يبطر زنوبيا النصر لانها كانت تعلم ان عدوها شرس ماكر فقد يعاود الكرة ويفاجئها بمعركة جديدة لم تحسب لها حسابا .كذلك فانها قلقة تخشى الخيانة ومكائد الاقارب .

وفعلا فقد حصل ما كانت تتوقع اذ لم يلبث العدو الروماني ان عاد اليها بقوة لم تستطع الصمود امامها هذه المرة ،لان خيانة الاقارب لعبت دورها لان جيشها الذي استنزفت قواه معركة سابقة قريبة لم يكن قد استطاع ان يستعيد قواه مرة ثانية .

وتطالعنا زنوبيا في قصرها لاخر مرة وحولها قوادها ومستشاروها يفكرون في وسيلة تعيد اليهم الكرامة ولكن تفكيرهم لم يطل اذ يفاجئهم رسول قيصر طالبا من زنوبيا ان تكون الفداء لشعبها فتقدم نفسها اسيرة للرومان.ولم تجد زنوبيا بدا من ان تشتري السلم لبلادها بنفسها فتخرج مع جنود الرومان تحت جنح الظلام ،بعد ان توصي ابنها، وهب اللات بأن يكون رجلا حازما يعرف كيف يدبر شؤون ملكه .

يحاول الاستاذ مردم ان يتقيد بأحداث التاريخ ولا نرى مخالفة لهذه الاحداث الا في القسم الاخير من المسرحية حين جعل الشاعر زنوبيا تذهب مع جنود الرومان بمحض ارادتها بينما يقول التاريخ انها كانت تحاول الفرار ناجية بنفسها فيلقي الجنود الرومانيون القبض عليها ويقتادونها اسيرة الى روما .وكأن الاستاذ مردم وجد في قبولها الاسر فداء لشعبها نوعا من التضحية فأراد ان يزيد من حبنا للملكة واعجابنا بها .

والحقيقة انه اتقن رسم زنوبيا فابرزها لنا ملكة حكيمة شجاعة ،وكانت صورتها تتكشف لنا شيئا فشيئا من حديثها تارة ومن حديث الاخرين تارة اخرى ،في حديث عبلة نرى زنوبيا الوقورة المهيبة .

يهوى الفؤاد فتونها — وتخاف سطوتها العيون

وهي حكيمة في كل كلمة تقولها حتى انها حين تتحدث عن الربيع فانها تعرف كيف تفتق الحكمة من حديثها .

ليس الربيع بدائم — وفتونه لبوار
ما كان الا الطيف في — قصر وفي ادبار

أما حين يرسمها من الداخل فانه يذكرنا بشوقي وهو يصور في كليوباتره الملكة والانثى معا .وهذا لا يعني ان عدنان مردم ينقل عن شوقي كلا ، فلكل من الشاعرين اسلوبه الخاص وطريقته الخاصة ،وان كنا نجد احيانا تشابها في المعاني ،فشوقي مثلا جعل كليوباترة تحس بهذا التناقض بين طبيعتها ولمتطلبات ملكها فحاولت التغلب عليه .

فان تك بي خشية في النساء — فلي جراة الملكات الكبر

وزنوبيا احست به احساسا قويا فأرادت ان توازن بين القوة والضعف والشدة واللين واعطت لكل جانب في ذاتها حقه ،فكانت أما رؤوما وكانت ملكة جبارة :

تابى الامومة ان تغل — يد ونحجم عن جليل
اني على فرط الحنا — ن فليس باسي بالقليل
لي جانب سهل وآ — خر كان كالداء الوبيل

وهي بعيدة النظر تحاول دائما ان تربط المستقبل بالماضي .ومن الامثلة على ذلك موقفها من هدية كسرى

اليها بعد النصر ،لقد اخذت الهدية ولكنها ظلت حذرة لا تثق بمساعدته لانها تعرف نواياه السيئة .

كان اجدى من سخاء الكف لو تسخو السريرة
لو ضمنت العون من كسرى لثمرت مفيرة

ولكن النجاح يخون الشاعر حين يلتقي الماضي والحاضر في نفسه فنحس بمشاعره تتسرب الى نفس زنوبيا وتتدفق على لسانها وهكذا تظل شخصية زينب التاريخية سليمة ما لم تبرز شخصية الشاعر . وعندها يفلت من يده الواقع التاريخي وتطل براسها الافكار العصرية ، كما في هذه الابيات حيث تحمل زنوبيا وصيتها لرسول كسرى فيطل وجه الشاعر وهو يفكر في قضية انقسام العالم الى معسكرين شرقي وغربي والتطاحن المستمر بينهما:

شرق وغرب لعمري الضدان في كل امر
والناس فيه شتات في كل قطر ومصر

وبقية شخصيات المسرحية لم تتم بذلك الدور الكبير الذي يشعرنا بوجودها ، فهناك المستشاران : لونجين : هادىء الطبع يكره لغة السيف ويحب الهدوء والسلام . والحضارة في نظره لا تشيدها الدماء .

ان البطولة في العقول وليس في طعن وضرب
فتح العقول بكل قلب خالد وبكل لب

والمستشار الاخر كليكرتاس : ناصح امين للملكة ، ماخوذ باعمال زنوبيا ومنجزاتها الخالدة ولكنه يعتقد ان الحضارة لا تشيدها العقول فقط :

ان الحضارة ثورة خلاقة جادت بسكب

وهناك القائدان زيد وزبدا . اما زيد فانا نراه في المسرحية مرة واحدة وذلك حين ياتي لكي يخبر زنوبيا بانباء الاستعدادات السرية التي يقوم بها الرومان لحرب التدمريين :

روما تعبىء جيشها للزحف سرا من زحل

اما زبدا فانه يحضر الجلسة التي عقدتها زنوبيا للبت في قضية الحرب مع الرومان ، ويكون رايه الا مفر من خوض المعركة :

مليكتي كل حل غير القتال محال

كما نراه بعد الهزيمة راجعا من عند كسرى يحاول اقناع زنوبيا بتلبية دعوة الملك الفارسي علها تستطيع استدرار عطفه فيقدم للتدمريين المساعدات الكافية لايقاف الزحف الروماني :

ما كان للمضطر في الخطب المروع من خيار
الليث يهجر غيله حذر المذلة من صغار

وهناك الشخصية المعارضة شخصية الحارث الذي يحاول بكل وسيلة بلبلة الافكار والطعن على زنوبيا وعيب ادارتها ، واتهامها بالضعف والعجز والظلم :

تامل وجوه القوم تبصر خيبة العبد
عيون حشوها سقم بما تخفي وما تبدي
واجسام طواها الجوع فانتفضت من الجهد
وزينب لا ترق لمد مع البؤساء كالصلد

وربما استطعنا ان نعتبر الشخصية الثانية التي اتقن الشاعر رسمها في المسرحية هي شخصية عبلة ابنة همام ، فقد تجلت فيها الصفات السامية النبيلة التي تجلت في زنوبيا وكان الشاعر مصرا على ان تلج اكثر المشاهد وتشارك في النقاش وتعبر عن افكارها بقوة وجراة . ولقد راينا موقفها من وهب اللات في اول المسرحية حين نعت عليه ضعفه وتذلله امام من يحب . ولكنها تعود فتعطف عليه وتحاول ترضيته ، اذ نجدها في المشهد الرابع من الفصل الثاني ساعية اليه معتذرة عما بدر منها نحوه .

انا من اساء الى الامير تجنيا وتكبرا
واتيت اسعى نحوه بضراعة لاكفرا

ولكننا لا نجدهما بعد المشهد الاول مجتمعين الا في آخر المسرحية ، حين تحل الهزيمة . وهذا يعني ان الموضوع الثانوي لم تكن له اية قيمة ترفد الموضوع الرئيسي اللهم الا التمهيد للاحداث ، ومع ذلك فقد كان بامكان الشاعر ان يجري حديثا بين شخصين من شخصيات المسرحية يكون موضوعه القضايا الجارية وهذا يكفي لبدء المسرحية .

ويجب ان نقف قليلا عند شخصية وهب اللات ، هذه الشخصية التي بدت في اول المسرحية ضعيفة مهزوزة ، لم نلبث ان وجدناها على غير ما عرفناها فيه لقد غدا فيما بعد شابا شجاعا تتجلى فيه بعض المزايا التي تتطلع اليها خولة ، فهل كان لكلام خولة ذلك البعد النفسي الكبير مما جعل شخصية وهب اللات تتطور ! كان بامكان الشاعر ان يسمعنا شيئا مما دار في خلد وهب اللات بعد ان سمع من خولة ما سمع .

والسؤال الان : هل كان لمسرحية زنوبيا ذلك الوقع النفسي الذي يتفق مع ضخامة الموضوع نلقي هذا السؤال على الحوار لانه من اكبر العوامل في خلق الحياة في المسرحية والحقيقة ان الشاعر استطاع في كثير من الاحيان ان يستخدم حواره في الكشف عن شخصيات المسرحية وتطوير الموضوع وتنمية الحوادث . فقد عرفنا مما قالته زنوبيا ان كسرى صديق اليوم ولكنه ذو نفس لئيمة تنطوي على دغل ، وعرفنا من الحوار بين الحارث وهمام سبب ذلك الدغل انه هزيمة الامس على يد اذينة زوج زنوبيا . يقول الحارث:

كسرى وان شكر الصنيع لها واسكره الظفر
ما زال جرح الامس بالدم من ظباها ينهمر
دون المدائن من اذينة شاهد ملء البصر
وبكل ركن عن فوضبه حديث او خبر

وعرفنا من حديث خولة ان الروم كانوا منذ عهد قريب يخوضون حربا لا هوادة فيها مع الفرس مما جعل خولة تعجب ان يعدوا من جديد من اجل معركة اخرى :

من اين للروم التجلد في الحروب على القتال
لم يلتئم للروم جرح بعد من وقع النبال
ودماؤهم من دون فارس لم تجف على الرمال

واذا كان الحوار قد ادى دوره في المسرحية والشخصيات اتقن رسمها فهل يعني هذا ان مسرحية

ملحمة الاغتراب

غدا الرحيل الى ديار الغربة ... فتجلدي ، اماه ، يوم الفرقة
لا تذرفي الدمع السخين تألما ... بلى زودي قلبي باجمل بسمة
لتكون زادي في البعاد مغذيا ... لطامحي ، ومشددا لعزيمتي
فاخوض معترك الحياة مزودا ... بنشاط مقدام عظيم الهمة
واحقق لي النجاح مكللا ... بازاهر المجد الطريف وثروة
ان انس ، يا امي ، فلن انسى المدى ... وطنا غلا عندي كأثمن درة
اما اذا طال الفراق ولم اعد ... فاظل اذكره ليوم منيتي

فدعت له الام الحنون بصحة ... ونجاح مسعى ما اقام بغربة
وبرغم غصة قلبها من فرقة ... هتفت تشجعه باحلى نبرة
في كل مغترب تلالأ نجمه ... ارزية ، اكرم بها من نجمة
فاذا نجوم الارز تسطع في الدنى ... ليظل لبنان منارة رفعة
و « نبي » جبران (١) غدا انجيلها ... لتعود بعد ضلالها لهداية
و «شموس» صباح(٢) بعثت نبراسها ... ليسودها نور عميم النعمة
و «اصابع» الدبغي(٣) شعت مبضعا ... يحيي به قلبا ينوء بعلة
هي هجرة شادت مفاخرها يد ... جبارة وسمت بكل بطولة
ستظل ملحمة الدهور ومجدها ... تروي اساطير الطموح بعزة

(١) كتاب جبران خليل جبران (٢) كامل الصباح المخترع اللبناني (٣) مايكل دبغي جراح القلب الشهير .

عبد الله صالح

زنوبيا من الخالدات ؟ وانها تستطيع ان تقف على قدميها في سوق المسرح العالمي وتتقدم زميلاتها من مسرحياتنا الشعرية ؟ ان الناظر المنصف الى هذه المسرحية يجد انها تشكو بعض ما شكت منه مسرحيات شوقي ومسرحيات سليمان العيسى .. لقد قدم الينا الشاعر شعراً وحشد لنا عناصر مسرحية ولكنه لم يستطع ان يخلق لنا هذا الجسم الحي لانه لم يستطع ان يبعث الماضي حيا . عجز عن أن يلقينا في رحاب الماضي ولم يتمكن من القيام بتلك الرحلة الفنية التي تنسي كاتب المسرحية ذاته فتلقيه في جو المسرحية . كانت الخيوط التي تشدنا الى الماضي واهية ضعيفة .

ان خلق جو المسرحية العام الناتج عن تلوين الحوادث والمواقف باللون المناسب للمسرحية يحتاج الى رحلة فنية كبيرة لا الى وادي عبقر فقط ولكن الى البيئة الحية التي اخذت منها هذه المسرحية .. يتطلب من الفنان الشاعر او الكاتب ان يتغلغل في كل جزء من جزئيات هذه البيئة فيعيشها بروحه وعقله معا . ومع اعجابي بالروح القومية التي تعج بها مسرحية الملكة زنوبيا ومع تقديري لشعور العربي الاصيل الذي دفع الاستاذ مردم لكتابة هذه المسرحية فانني ارجوه ان يكون اكثر عطفا على التاريخ واشد رعاية للبيئة الفنية .

لقد خرجت من المسرحية من غير ان احس فعلا انني كنت في تدمر وخرجت من قصر زنوبيا مع الخارجين او دخلت مع الداخلين لان الشاعر لم يعمل على ايهامي بذلك. كنت اتمنى ان اعيش الماضي بحلم ضبابي كما عشته في مسرحية « قدموس » لسعيد عقل ولكن خيوط الشاعر الحريرية لم تشأ لي ذلك فظللت هنا في القرن العشرين ظللت امام آثار عظمة تدمر ولم اعش هذه العظمة فعلا . ان الذي رسم زنوبيا شعراً لا يعجز عن نفخ الحياة فيها ولكن الاحساس الشديد بالواقع ومشاكله انساه ما تحتاج اليه المسرحية من ايهام فكان كما قال احد الشعراء انا لايهمني الماضي الا بقدر ما يخدمني في الحاضر .

دمشق

سكينة الشهابي

كانت المغنية تغني في مرح وحرية . وقفت بقامتها المشوقة ووجهها الصبيح تصنع كلمات غنائية ملؤها الحب والحنان والاشواق والثروة العاطفية ، ثم تبعثها من فمها الصغير في تؤدة وابتسام وفي بساطة وهدوء كأن الغناء لم ينبعث من ثغرها بل انبعث من مصدر اخر خفي . وكأنها كانت تحادث حبيبا لها لم يبد للعيان . كأن غناءها كان عبيرا ذكيا يفوح من زهرة ثغرها وورقتي حاجبيها ووردتي خديها وثمرتي عينيها الخضراوين ، وكانت رائعة التعبير في حركات يديها النحيفتين البيضاوين الخفيفتين كأن تينك اليدين مخلوقان صغيران يشاركانها في تكوين ذلك الصوت الساحر وخلق تلك الالحان المطربة . ان المستمع اليها يريدها ان تظل دائما تغني وتغني ، والا تنطق بكلمة واحدة غير ملحنة كأنها خلقت للغناء فحسب . بدت المغنية الحسنا مرحة خالية الذهن من الهموم قريبة الى القلوب وان كانت بعيدة عن وجوه المستمعين تارة تقترب من الجمهور المعجب بها في خفة كأنها تقدم نفسها اليه هدية ثمينة يتمنى كل ان يفوز بها، وتارة تتراجع بخطوات خفيفة كأنها تدعو الجمهور الى ان يقبل عليها ويقترب منها .

ثم احاطت بها زمرة من المغنيات الفاتنات يرقصن رقصا نشيطا حافلا بالفن والجاذبية والمتعة . كن كالعصافير يقفزن باجنحة خفية ،ثم يهبطن راكضات حول المغنية .وبذلك تألفت منها ومنهن طاقة من ازهار مختلفة تهب عليها الريح فتكاد تنتثر، ثم تهدأ الريح فتتجمع .

واخيرا بدأت الانغام الساحرة تنبعث من ثغورهن وهن يرددن على المغنية فكأن حديقة كاملة تكونت امام عيون الجمهور ـ حديقة تجمع بين الوان سارة تتموج على البستهن الهفهافة ،وتغريد جميل يهب من بين الاثمار والازهار والاوراق .لقد حولن الواقع الى حلم والهم الى فرح ، وغرسن نبتات خضرفي صحراء الحياة .

ذلك المنظر الفاتن كاد يتجسم على شاشة التلفزيون امام عيني عصام وهو جالس يمتع نظره وذهنه بما يرى محاولا ان ينسى ما غص به فكره من الهموم .منذ فارقته حبيبته زكية وهو حزين كئيب النفس لايعرف كيف يسلو هواه بعض الوقت .ما زالت زكية ماثلة امام عينيه في عالم خياله تحادثه ويحادثها على الرغم من المسافة الطويلة التي تفصله عنها .

كانت عيناه تلتقطان بعض مناظر المغنية التي بدت على شاشة التلفزيون فيسر هنيهة وينسى ذكرى حبيبته بضع دقائق . ولكنه لا يلبث ان ينسى المغنية ويذكر الحبيبة ،فكانت مناظر الغناء والرقص تمر امام عينيه كأنه لم ير شيئا او يسمع شيئا .



بقلم عبد الحميد الانشاصي

وفجأة رن جرس الباب الخارجي. فنهض عصام في كسل وفتور ،ثم اتجه الى باب داره وفتحه ،فوقع نظره على صديقه سمير . فابتسم اليه وقال بنغمة مرحة :

ـ اهلا سمير !

(عجب !أليس من عادتك ان تزورني في مثل هذه الساعة من الليل).

وتصافحنا .ثم دخل سمير ،واغلق الباب من خلفه. ولما جلس الصديقان امام التلفزيون التفت سمير الى صديقه قائلا :

ـ هل كنت تتفرج على التلفزيون؟

فتنهد عصام ،ثم اجاب بصوت رخو:



ـ اجل .

ـ انك مغرم بالاستماع الى الغناء.

فابتسم عصام ابتسامة خفيفة وقال :

ـ ان الغناء غذاء لروحي كمطالعة الكتب .

وساد الصمت بين الصديقين هنيهة .ثم خاضا حديثا طويلا :

سمير الخارجي : لعلك تتساءل في نفسك : لم جئتك في هذه الساعة من الليل .

سمير الداخلي : ارجو الا اكون قد ازعجتك .

عصام الخارجي : كأنك قرات ما يجول في نفسي .

عصام الداخلي : مهما يكن من شيء فقد كنت قبل مجيئك بحاجة الى من يؤنسني .

سمير الخارجي : تبدو لي حزينا يا عصام . فماذا يشغل بالك ؟

سمير الداخلي : انني اعلم ان فراق حبيبتك جر عليك هذا الحزن .

عصام الخارجي : (هازا رأسه) انك دقيق الملاحظة ياسمير .نعم اني حزين .

عصام الداخلي : لا شك انك تدرك السبب وهو فراق زكية لي .

سمير الخارجي : من تنهداتك التي اطلقتها منذ هنيهة ادركت ذلك .انه الحب .

سمير الداخلي : لقد اضناك هذا الحب .انني اخشى عليك المرض .

عصام الخارجي : (مبتسما) لقد حزرت ياخبيث .

عصام الداخلي : واذن فقد جئتني لتسليني وتشغلني عن التفكير في زكية.

سمير الخارجي : هل لا تزال غارقا في الحب ؟

سمير الداخلي : انك ما تزال شابا. غدا تكبر فتنظر الى الحب نظرة اخرى.

عصام الخارجي : لاتلمني ياسمير. دعني احب واحب حتى يتشبع جسمي من الحب . انني لا استطيع ان اعيش بلا حب .ان كانت مطالعة الكتب والاستماع الى الغناء من اغذية روحي فان الحب نوع من الهواء لا استطيع ان اعيش دون ان استنشق منه .

عصام الداخلي : ان الحب هو الشيء الوحيد الذي يجعلني اشعر انني شاب .

سمير الخارجي : االى هذا الحد انت غارق في الحب ؟

سمير الداخلي :مسكين !هذاكثير .

عصام الخارجي : انني لا استطيع ان امكث بعيدا عنها .انك تعلم يا سمير انها هي المعين الذي انهل منه اخيلتي وافكاري الادبية .انها مصدر ابداعي في القصةوالمسرحية والشعر . فماذا يحدث لي بعد ان فارقتني زكية؟

عصام الداخلي : اخشى ان تتحول جنة الهامي الى صحراء قاحلة .

سمير الخارجي : الا تستطيع ان تتلهى عنها بالمطالعة ومشاهدة مناظر التلفزيون والاستماع الى الغناء ؟

سمير الداخلي : انك رجل مثقف، ومن بلغ ما بلغته من الثقافة والوعي يمكنه ان يستعمل ارادته ويتحكم في عاطفته .

عصام الخارجي : ياليت !لقد تعودت ان اراها بجانبي واستمع الى حديثها الشائق وامتع النظر بوجهها البريء الفاتن .

عصام الداخلي : لقد عودتني الا اتمتع بطيب العيش الا من طريقها .

سمير الخارجي : ولكنها لا بد ان تعود اليك فيما بعد . فما هذا اليأس يا عزيزي ؟

سمير الداخلي : هل انت طفل لا يستطيع ان يفارق امه ؟

عصام الخارجي : تعود ؟زكية تعود! هذا محال .

عصام الداخلي : انك لا تعلم من الحقيقة شيئا .

سمير الخارجي : وما المانع من عودتها ؟

سمير الداخلي : اخشى ان يكون قد حدث شيء اجهله .

عصام الخارجي : (في يأس) يشاع انها تزوجت .الا تدري ؟

عصام الداخلي : رحلت الى غير رجعة . فكيف اراها ؟لقد ضاعت في ذلك القطر الواسع الجميل النائي .

سمير الخارجي : (محملقا في تألم) تزوجت ؟لا تصدق تلك الشائعة .

سمير الداخلي : هذا ما لم يخطر ببالي من قبل .

عصام الخارجي : (متنهدا) هل تظن يا سمير ان حبنا سوف يموت؟ اعتقد انه محال ان يموت .

عصام الداخلي : لن انساها ولن تنساني .ان حبنا خالد .

سمير الخارجي : نصيحتي لك يا صديقي ان تنسى حبك هذا .انسى حبيبتك زكية ولا تفكر فيها ابدا .

سمير الداخلي : ان تزوجت خرجت من حياتك .

عصام الخارجي : اعتقد ان ذلك ليس في امكاني .

عصام الداخلي : انها في اعتقادي زوجتي ،فقد تزوجتها في مخيلتي .

سمير الخارجي : سوف تنسيك الايام ذكراها .أؤكد لك ذلك .

سمير الداخلي : ان الزمن يقتل بطولة الذكرى ويميت صاحبها فيما بعد .

ثم نهض سمير مطلقا ضحكة رنانة وملقيا يده على كتف صديقه وقال :

ــ انت واهم ياعزيزي .ان الحب سوف يزول من قلبك كما يزول الوهم من ذهنك .كم عشق كثيرون من الشبان من قبلك ثم نسوا حبهم كأنهم لم يكونوا من قبل عاشقين .

وخرج سمير من المنزل وهويبتسم الى عصام وهذايقابل ابتسامته بعبوس وكآبة .

ولم يستطع عصام ان يسلو غرامه. فرأى ان يقوم بسياحة في ايطاليا بلاد الفن والجمال. وهناك تلهى بالنظر الى التماثيل الجميلة المنصوبة في برك صغيرة ينفر منها الماء صعدا . ومتع نظره بالرسوم الزيتية التي يغص بها متحف روما، واعجب بالحدائق الغناء التي تحدق بمدينة فلورنسا . وقضى وقتا طويلا متنقلا في سفن الشوارع المائية بمدينة البندقية .

رأى رسوما زيتية امتازت بالدقة والحيوية والاتقان .وقعت عيناه على صور لاشخاص بدت وجوههم شبيهة ببعض وجوه اناس حقيقيين التقاهم في الحياة كأن من رسموها رأوا اولئك الناس معه ولاحظوا قسمات وجوههم وسحنهم حينما لاحظها هو .

ولم يكتف عصام بذلك بل قضى شهرا في فينا حيث تمتع بالاستماع الى الوان عذبة من الموسيقى حتى تخدرت همومه وصار ينظر الى العالم نظرة حالمة راضية .

وبعد ذلك غمر افكاره في مطالعة الكتب من ادبية واجتماعية وفلسفية وعلمية . وبذلك شغل ذهنه بالتفكير في امور بعيدة عن حبه .وظن انه نسي حبيبته وحبه ،وانه اصبح الانسانا آخر ناضج العقل ذا ارادة صلبة ورجولة كاملة .وعاد بتفكيره الى صديقه سمير فتبين له ان صديقه كان مصيبا في رأيه حينما انبأه ان الايام سوف تنسيه ما بينه وبين زكية من هوى عنيف . ولكنه لم يلبث بعدما استقر في مدينته ان عاوده الحنين الى زكية والى الايام السعيدة التي قضاها معها . فمحت ذكراها الحلوة الانطباعات التي تركتها المناظر الجميلة والرسوم والتماثيل والموسيقى على ذهنه .

لقد كان طيلة الوقت متفرجا على الحياة . تمتع بالشيء الكثير من محاسنها ومن ابداع عباقرتها وذوي المواهب من الناس ، ولكنه كان يأكل من ثمرات القابهم دون ان يقدم شيئا من ثمر اتعابه . كان متفرجا على الحياة فحسب ولم يشارك غيره من المبدعين في تقديم اثمار عمله الى الناس . اجل لقد الف كثيرا من الاشعار والروايات والمسرحيات ، ولكن انتاجه كله مخبوء في درج مكتبه ... انه اديب مغمور لا يعرفه من القراء الا عدد ضئيل مؤلف من اصدقائه ومعارفه الذين كانوا يقرؤون بعض اشعاره وقصصه . انه لم يخرج بانتاجه الى العالم بعد . ما زال عائشا في عالمه الضيق الذي كونه بمطالعاته وعلاقته الغرامية بزكية .

ان مطالعة الكتب ومشاهدة التماثيل والرسوم والرقص والاستماع الى الغناء والموسيقى ــ كل ذلك لا ينسيه علاقته الغرامية بحبيبته لانه عاطل من العمل ، انه لا يقوم بعمل

حقيقي يتذوق ثمرته عدد كبير من الناس كما يتذوق هو اثمار غيره من المبدعين . فأخذ يفكر في الظهور في العالم ليقدم الى الناس خيرة انتاجه ولكي يشارك غيره ممن يقدمون انتاجهم . ان ذلك سبيله الى العمل . والعمل هو الشيء الوحيد الذي ينسيه حبيبته وحبه .

راسل بعض شركات الافلام عارضا عليهم بعض رواياته محولة الى حوار سينمائي . فشل مرة وثانية وثالثة. واخيرا قبلت احدى رواياته ، وعرضت في فيلم على الجمهور ، فحظيت باستحسان كبير . وشفع تلك الرواية بروايات اخرى فنالت اعجاب الشركات السينمائية وجمهور المتفرجين .

شعر عصام براحة نفسية عظيمة اذ تحول حبه لفتاة الى حب للناس اجمعين ، وخرج من عالمه الضيق الى عالم فسيح كبير . كان ملكا لحبيبته، وكانت حبيبته ملكا له . اما الان فهو ملك للشعب ، والشعب ملك له . ارتفعت مكانته وازداد قدرا . انه لم ينس ذكرى غرامه . لقد ترك حبه في نفسه اثرا لا يزول ، ولكن ما فقد من حبه هو العنف ، كان حبه صاخبا كالشلال يرغي ويزبد ويثور بلا نفع . اما اليوم فهو شبيه بنهر هادىء يسير في بطء ويروي الاراضي التي يشقها دون ان يحدث صوتا .

كانت رواياته السينمائية شبيهة برسائل غرامية يبثها حبه القديم ويبعث بها الى حبيبته زكية ، فتطلع عن بعد على ما يجول في قلبه من هوى واشواق . وبذلك يخلد حبه صافيا نقيا لا تشوبه انانية ولا غرض مادي.

(نشيد عصام الداخلي)

لماذا كنت تنظرين الي هكذا يا حبيبتي زكية ؟ هل كنت تحاولين ان تقرأي ما يجول في قلبي من عواطف ؟ ان نظرتك على نعومتها كانت حادة فقد اخترقت قلبي . ربما اطلعت على ما اكنه لك من حب وشوق شديد الى الجلوس اليك ومحادثتك، ولكن هناك شيء اخر غير الحب والشوق ، لم تستطع نظراتك الحادة ان تصل اليه ، انه شعور خفي مبهم لم استطع ان اصوره في نظراتي التي اوجهها اليك . ولا في نغمة كلامي حينما اتحدث اليك . انه مزيج من الحب والصداقة والامل واليأس والعذاب واللطف والقسوة والانانية والتضحية والحياة والموت . ان شعوري بهذا المزيج لا يمكنني من ان اصوره في نظرتي او حديثي او في رسالة ابعثها اليك . ولكنني استطعت ان اصوره في رواياتي التي تحول الى افلام سينمائية وتشاهدينها على الشاشة البيضاء حينما ترين في تلك الافلام فتاة مرحة ترقص طربا ومرحا فاعلمي انها صورة رسمتها لك .وان رأيت فتاة تندب حظها وتثور على الزمان وتلقي نفسها بين يدي حبيبها في شوق فاعلمي انها صورة رسمتها لك . وحينما تشاهدين شابا متأبطا ذراع فتاة حسناء وهما يسيران في احد ممرات حديقة غناء ، فاعلمي ان الفتاة هي انت وانني ذلك الشاب .

وحينما ترين فتى يمشي في بطء ويظهر في مظهر هادىء ومع ذلك يتلفت وراءه دون ان يعلم احد الى من يتلفت ، فاعلمي ان هذا الفتى هو انا قبل ان تتوثق عرى الحب بيني وبينك . وحينما ترين فتاة تضم شفتيها في قوة دون ان تحدث شفتاها صوتا بين جمع من الناس فاعلمي انك تلك الفتاة في ساعة من ساعات خجلك . حينما ترين فتاة تجرد زهرة من اوراقها وتلقيها في الماء في سخط وغضب وتنهد ، فاعلمي انك تلك الفتاة في ساعة وداعنا الفجائي ، وحينما يقع نظرك على شاب ينظر الى شاشة التلفزيون وحيدا في صمت وذهول ، فاعلمي يا زكية ان ذلك الشاب هو انا في اثناء غيابك .

(نشيد زكية الداخلي)

اين انت يا حبيبي عصام ؟ لقد شاهدت قصتك « غرام بالامس » ممثلة في فيلم ، لشد ما تمنيت ان تكون بجانبي لكي اقول لك : « احسنت يا حبيبي ! » لقد ضن الزمان علينا بالزواج ، ولكن لماذا ضن علينا بجلسة في دار السينما لاقول لك : « احسنت يا حبيبي ! » ؟ انني بعيدة عنك ، ولكن قصصك السينمائية تشعرني انني قريبة منك . لست ادري لماذا يخفق قلبي بسرعة حينما اشاهد مناظر قصصك الغرامية في الافلام. لقد اودعت تلك المناظر حرارة وحماسة غير عاديتين . بينما كنت اشاهد احد تلك المناظر مرة قدمت الي احدى صديقاتي بذورا محمصة لآخذ منها شيئا ، ولكنني لم انتبه الى ذلك . وبدلا من ان اتناول شيئا من البذور اتت يدي حركة غريبة صرمت على الاثر البذور فنثرتها على الارض دون وعي مني . وقد عرفت فيما بعد انني اتيت تلك الحركة لان المشهد السينمائي ذكرني بموقف غرامي عزيز علي . وكانت الحركة صادرة عن تأثر وشوق .

رفقا بي يا حبيبي عصام ! لاتكثر من المواقف الغرامية اذ اخشى ان يفتضح امري مع صديقاتي وانا اشاهدها . حسبك من تصوير المناظر ما يجعل قلبي يخفق بحبك. حسبك ان يخفق لك قلبي بحبك في صمت وهدوء دون ان يلاحظ ذلك علي احد . كلما علمت ان احدى قصصك الممثلة في فيلم عرضت في مدينتي ، فاعلم انني كنت احدى مشاهداتها وانني اعجبت بها، وفكرت فيك وفي ايامنا الحلوة . ولكن لماذا ضن الزمان علينا بجلسة في دار السينما لاقول لك : « احسنت يا حبيبي ! » ؟

عمان — عبد الحميد الانشاصي



عبد الرحمن الاوزاعي

تاليف الشيخ طه الولي ـ ٢٥٤ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار صادر ببيروت ـ مطابع صادر ببيروت

منذ ثلاثين سنة ، وفي عز الحرب العالمية الثانية ، كنت لاجئا الى تركيا، اقيم في مغنيسا من اعمال الاناضول مضطرا ومراقبا ،لا انيس ولا جليس! فلم يهون على وحشتي ،ولم يبدد غربتي الا ما اهتديت اليه من وجـود مكتبة للاوقاف تدعى « المرادية » ،وقد الفيتها حافلة بالمخطوطات العربية فاكببت على المطالعة بكرة واصيلا ، وفي تلك البيداء النفسية وجدت في المكتبة واحة ادب وفقه ولغة ،ومن مخطوطات المرادية عرفت ابن كمال باشا،العالم التركي المستعرب،ذا التصانيف المتعددة فياللغةوالادبوالفقه وفي تلكالمكتبة تضوأت باقباس من «مثنوي» مولانا جلالالدين الرومي.. ورأيت نسخا مخطوطة من كتاب « محاسن المساعي في مناقب الاوزاعي » فكنت اعرض عنها ،لانني لم اكن اعرف الاوزاعي ،وان كنت قد سمعت قبلئذ بقليل ان الامير شكيب ارسلان قد نشر كتابا عنه ،ولكن ما تبينته من كثرة النسخ المخطوطة مما يدل على منزلة الرجل لدى القوم اولا ، ولانه لم تكن لي مندوحة عن قراءة كل ما تقع عليه عيني ثانيا ـ رأيتني اقرأ احدى المخطوطات من كتاب « المحاسن » فاعجبت بالاوزاعي ،وحدث بعد العودة الى الوطن ان اعارني شقيقي الاكبر المرحوم عادل كراسة صديقه المرحوم الاستاذ انيس النصوليعن الامامالاوزاعي فقرأتهامستعيدا في ذاكرتي خلاصة ما قرأت في مغنيسا ..

وهكذا اصبحت على معرفة متواضعة بالاوزاعي ،وامسيت في عداد المعجبين به ،الظامئين الى مزيد من سيرته ..

وفي دراسة للقانون الدولي الاسلامي لا بد من الاعتماد على «السير» والسير جمع سيرة ،والسيرة هناك ليست ما يتوهمه البعض انهاصحيفة اعمال او ترجمة حياة ،وانما هي سيرة المسلمين في معاملة اهل الحرب والعهد والذمة وغيرهم ..وقد علمنا من كتاب لتلميذ ابي حنيفة ،هـو الامام ابو يوسف عنوانه : « الرد على سير الاوزاعي » ان الاوزاعي قـد الف في السير ..كما ان الامام الشافعي قد اشار الى سير الاوزاعـيفي كتابه « الام » في الحديث عن شؤون الحرب .ولهذا تفصيل : كان ابـو حنيفة يدرس تلاميذه القوانين الاسلامية للحرب والسلم ،وهي ما نسميه اليوم « القانون الدولي » ...وانبرى تلميذ نابغ لابي حنيفة هو محمد بن الحسن الشيباني لتدوين هذه الدروس سنة ١٨٩ هجرية في كتـابـه « السير » ،وهذه الدروس يمكن ان تجعل ابا حنيفة ابا للقانون الدولي.

واطلع الامام الاوزاعي على كتاب « السير » للشيباني ،او لعلـه سمع به ـ والشيباني وابو حنيفة عراقيان ـ فقال : « ما لاهل العراق والتصنيف في هذا الباب ،فانه لا علم لهم بالسير ،ومغازي رسول اللـه صلى الله عليه وسلم واصحابه كانت من جانب الشام والحجـاز دون العراق فانها محدثة فتحا ..» وهنا تولى الامام الشيباني تاليف كتابه الفخم الضخم « السير الكبير » .هذا الكتاب الانفس شرحه فيما بعد شمس الائمة السرخسي شرحا شافيا وافيا ،واشتق منه احكاما كثيرة الامر الذي جعل المختصين بالقانون الدولي ممن اطلعوا عليه يعتبرون الشيباني الرائـد الاول للتاليف في القـانون الـدولـي، ويعترفون بانه سبق بذلك غروسيـوس الهولندي (١٥٨٣ ـ ١٦٤٥) الذي دعـي ابا القانون الدولي في عصره ، وبهرهمالكتاب حتى الفوا جمعية الشيباني للحقوق الدولية، وجعلوا القانوني الفقيه المصري عبد الحميـد بدوي رئيسا لها كما نادوا بالعلامة الدكتور صلاح المنجد الذي حقق الشرح واشرف على طبعه نائبا للرئيس .

لقد اطلع الامام عبد الرحمن الاوزاعي على « السير الكبير » للامام الشيباني .. فماذا قال عظيم في عظيم ؟ هل بخسه حقه ؟ هل كابـره عليه ؟ لقد قال عنه : « لولا ما ضمنه من الاحاديث لقلت انهيصنع العلم من نفسه، وان الله تعالى عين جهة الصواب في رأيه »، وقـد استثنى الاحاديث لانها أقوال معزوة الى الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم .. وما اظن ان قولا سريا يمكن ان يقال في تقدير مؤلف ابلـغ واروع من هـذا ...

وظللت ظامئا الى الحديث عن الامام الاوزاعي ..الى ان افضل علي صديقي المحض المودة ، الباحثالناقد، الحركة الدؤوب، المتوقدغيرةعلى امته ودينه ،الاستاذ طه الولي باهدائه الي مؤلفه « عبد الرحمن الاوزاعي شيخ الاسلام وامام اهل الشام » .وكان من بركات رمضان ان يكون هذا الكتاب اول ما قرأت فيه ،وان اشارك المؤلف في « تحية ذكرى الرجـل الذي تهادته قمم العصور من جيل الى جيل على راحات المجد والخلود.» وان اشعر مع المؤلف وانا اتلو كتابه « كان الاوزاعي فينا حي لم يمت » وان ارافقه في وضع « غصن الآس على مقامه » تكريما لذكرى العظيمالذي قال فيه امير الساحل ارسلان بن مالك حين دفنه: «من يظلم بعـدك فليصبر!» لان من وقف نفسه على نصرة المظلوم وقدع الظالمين قد غاب.

قد ترجم « الولي » الحميم الامام الاوزاعي فاجاد وافاد ،وجـلا سيرته فبرع وسطع ،وكان اخاذا في الحديث عن مواقفه امام الحكاموالولاة ولله ما اروع وقفتهامام عبداللهبن علي!! ولله ما افصحوابلغنصائحهللخليفة ابي جعفر المنصور ! .ولعل مما افدته من ايراد اقوال للامام عرفاني انه ذو اسلوب بياني يمكن انيصفه في صف ائمة الكتاب البلغاء.

وما اكثر ما كان الاستاذ الولي موفقا في استنتاجاته مثل تعليلهاطلاق البيروتيين « العمري » على اكثر من زاوية ومسجد « تيمنا باسمالخليفة عمر » .وقد شاركته الحسرة على صيرورة مدرسة الاوزاعي ومسكنـه حانوتا لتاجر وتمثلته يتنزى غضبا وهو يرى آثار العظيم تطمس !

واني قبل ان ابدي ملحوظات تنم على اهتمامي بالكتاب وارتيائي به عن القراءة الخاطفة ينبغي لي ان اشيد بالجهد الذي بذله الاستاذ الولي في تحقيقاته الموفقة وبروعة ما انهى به الكتاب ، وقد اثر في وجداني سؤاله العليالقدير «في عبودية وخضوع ان يجعلنا بكرمه عند حسن ظن الاوزاعي الذي آثرنا بفضله حين اختار بلدنا بيروت ،ليكون اهلها اخر صحبه بالدنيا وتكون ارضها اول عهده بالاخرة ، وذلك حين عاش فيها مرابطا في سبيل ملته وعقيدته ثم تولى بالوفاة وهو عنها راض بما كتب عليه من الطريق الذي سار به الى نهايته حيث وجد بين يدي اكرم الاكرمين الراحة الكبرى الى يوم يبعثون ،يوم لا ينفع مال ولا بنون ،الا من اتى الله بقلب سليم .»

ولعل مما يغري بابداء الملحوظات رجاء « الولي » المتواضع في ختام مقدمته للمحققين ان يبدو ما يرون فيه تقويم الخطا « ولله المثل الاعلى».

قد عجبت لان مراجعات الصديق عن هذا الامام الكبير لم تصـل به ـ على قوله ـ « الى حد الاقتناع بان اقواله المختلفة في الفتاوي التي نسبت اليه جديرة بانتجعل منه رأس مذهب خاص على نحو ما اتفـق

لغيره من ائمة التشريع » .وفي هذا بعض تسرع من المؤلف ،على حين ان في كتابه النفيس من اخبار الامام وما قيل فيه وعنه ما يوكد مذهبه .نعم، « ان ما بين الايدي من تراث الامام ليس على قدر كبير من التحديد والتمييز ..» ولكن هذا لا يسوغ في حال ان يقول : « ان جماع القول في الرجل انه كان في الواقع على قسط كبير من الزهد وكثرة العبادة »هذا كثير ياشيخ !!ترى هل تنزل كل رجل زاهد ،كثير العبادة منزلة الاوزاعي ؟ هل جماع مناقب الرجل قسط كبير من زهد وعبادة ؟ اين ذهب العلم الغزير؟ والرأي الثاقب؟ والاجتهادالصائب؟ والدرس والتدريس والجهد الانساني الخير ؟أهذا مبلغ القول في صاحب كتاب « السنن والمسائل »، الرجل الذي كانت تدور الفتيا بالاندلس على رأيه الى زمن الحكم ؟.. على انك ما لبثت حتى عددت صادقا ومحقا«الائمة الاربعةمن انداد هذا الامام من اهل الاجتهاد والتشريع » ..ثم ما لبثت حتى اوردت تعليل الاستاذ محمد كرد علي للامر « بان هناك مذاهب جماعية، لا تقل عن غيرها شانا ضعفت شهرتها اذ لم تجد من يعضدها من الملوك ولا من يهتم بها من الخاصة والعامة الخ » ..

وعزا شيخنا المؤلف الى الاوزاعي قوله : « ساعة عدل خير من عبادة الف شهر ! » وما اظن ان الاوزاعي يبيح لنفسه ان يقطع بهذا من عنده ،والذي اعتقده ان هذا القول هو حديث مروى عن النبي صلىالله عليه وسلم .

وقد توسع المؤلف كثيرا في الحديث عن مدافن بيروت الاسلامية الدارسة والباقية ،وعلى ما في هذا من فائدة تاريخية فانه جاء علىحساب البحث عن الاوزاعي ،وليت المؤلف اشار الى هذا التوسع الاستطرادي المفاض في مقدمة الكتاب .

وقال المؤلف ان السلطات العثمانية قد عثرت في ضريح الوالي ،في اثناء الحرب العالمية على اوراق تبين علاقة المرحومين محمود واحمد المحمصاني (والصواب محمد لا احمد) بالحركات السياسية المناهضةلها وان اكتشاف هذه الاوراق كان من اسباب الحكم عليهابالاعدام.. والواقع ان السلطة العثمانية لم تعثر على شيء من هذا ،وان شقيقة الشهيدين المحمصانيين وقريبة الشهيد صالح حيدر كانتا قد انقذتا هذه الاوراق واحرقتاها، ويدل كتاب «ايضاحات» الذي اصدره السفاح جمال باشا على ان اعدامهما الحياة كان بسبب انتمائهما الى اللامركزية ..هذا وقد رايت في قول صديقنا المؤلف ان الفرنسيين سموا الساحة في عهدالانتداب ساحة الشهداء اكراما للاخوين محمصاني وغيرهما ...مغتمزا لهما .. فليس الفرنسيون هم الذين اطلقوا على الساحة هذا الاسم ..وانما كون الساحة هي التي صلبوا فيها اوحى للناس بهذه التسمية ..وقد سميت ساحة المرجة بدمشق ساحة الشهداء للسبب ذاته ،وكان ذلك في العهد الفيصلي يوم لم يكن فرنسيون ولا من يحزنون !!

واقول استطرادا اننا نشارك المؤلف الترحم على الامير شكيب ارسلان الذي حقق كتاب « المحاسن » ونشره ،وقد اشار الاستاذ الى انه شاركفي تشييع جنازة الامير«التي حضرها مفتي الجمهورية والعديد من زعماء العرب والمسلمين » ،ولما كنت ممن آهرعوا من دمشق لتشييع الفقيد ،ورافقوا الجثمان الى الشويفات ،فان ما ارى اثباته هنا هو ان رئيس الجمهورية الشيخ بشاره الخوري ـ وكان صديقا للامير ـ اقبل يعزي بالفقيد العظيم ،قبل انطلاق الموكب وان الحكومة اللبنانية اذاعت بلاغا رسميا بدأته بالنص التالي : « الجمهورية اللبنانية ودنيا العرب تنعي الى ملوكها ورؤسائها ورجالاتها المجاهد الاكبر امير البيان ،الامير شكيب ارسلان » .ولا ازال اتمثل رياض الصلح يرسل عبراته حينيسمع عبارة « امير البيان » في اناشيد النادبين منعشيرة الامير.

ومما الفت النظر اليه ان بيتا من قصيدة محمد بن عراق مكسور وها هوذا :

كلام قديم لا يمــل سمـــاعه تنزه عن قلبـي ومقلتـي ونيتـي

واغلب الظن انه قال : عن قلبي وعيني ..اوسمعي ،لا مقلتي .

الاديب

لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر

يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ١٨ ليرة لبنانية

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ١٠٠ ل.ل.

في الخارج العربي : ٤٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي

٨٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

في سائر الاقطار : ٢٠ دولارا بالبريد العادي

٤٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار :

في لبنان وسورية : ٥٠ ل.ل. كحد ادنى

في الخارج ٨٠ ل.ل. او ٤٠ دولارا كحد ادنى

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

الادارة : ٢٢٣٨١٩ — Dir : 223819

المنزل : ٢٢٥١٣٩ — Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت ـ لبنان

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول

البير اديب

وكذلك قول الكستي :
اقام له الرحمن في الكون مذهبا وخصه بالكرمات وعمما
ولعلها : وخصصه .

وقد وددت لو ان شيخنا المفضال جمع النية على النيات لا النوايا، والرسول يقول : « انما الاعمال بالنيات » .ولو انه قال الكفاية بدلا من الكفاءة ، لان الكفاءة هي المماثلة .

وعلى ان كتاب الاوزاعي روى عطشي الى النمير من سيرة الامام فانه في الحين ذاته قد اذكى في نفسي شهوة التطلع الى البحث المفاض عن فقهه، وقد علمت أن الفقيه المدره الدكتور صبحي المحمصاني مضطلع بهذا العبء ،وانه لناهض به باذن الله .

للاستاذ طه الولي مع جزيل الشكر وبالغ التقدير خالص الدعاء ان يطيب الله انفاسه وان يخصب بالخير مساعيه .

اكرم زعيتر

●

١ ـ الاثار الخطية في المكتبة القادرية

تاليف عماد عبد السلام رؤوف ـ ٣٢٤ صفحة ـ من القطع الكبير ـ مطبعة الارشاد ـ بغداد

جاءني مظروف يحمل خطوطا جميلة جدا ما بين خط الرقعة وقلم النسخ مكتوبة بالحبر الاسود الذي اصطلحنا على تسميته بالحبر الصيني ـ او الشيني ـ ففتحته واذا بداخله كتاب « الاثار الخطية في المكتبة القادرية » وعليه اهداء حار متواضع كريم من السيدين الحسيبين النسيبين : يوسف الكيلاني ، وسالم الكيلاني ، متوليي الاوقاف القادرية بجامع الشيخ عبد القادر الكيلاني القطب الشهير المدفون بعاصمة العراق .

وبدات اقرا الكتاب واقبل عليه بنهم ، شاني في كل كتاب يقع بين يدي ، فاذا به فهرس وصفي شامل للمخطوطات المودعة في خزانة كتب جامع الشيخ عبد القادر الجيلاني ـ او الكيلاني ـ وهي الخزانة المعروفة اليوم باسم : مكتبة المدرسة القادرية العامة .

والخزانة حافلة بالمخطوطات والمطبوعات ، حتى لبلغ عدة الكتب فيها قريبا من ثلاثين الف مجلد ، وعدة الاثار الخطية فيها ستمائة والف مجلد . تجمع بين موضوعات مختلفة من النتاج الفكري الاسلامي العربي ما بين علوم قرآنية او حديث شريف ، وفقه وكلام وعقائد وتصوف ولغة وادب وشعر وتاريخ وتراجم ، بل تضم كتبا في الطب والفلك والحساب ،، وكانها شاهد جديد على اهتمام العقلية الاسلامية بعلوم النقل والعقل والعلوم العملية التي دعا اليها الرائد المصري الشيخ حسن العطار ، وعبد الله فكري باشا وغيرهما .

واذا كان واجب الشكر قد اقتضانا ان نذكر اسم السيدين المهدبين، فان واجب التقدير والقيام بحق النصفة العلمية يقتضينا ان نذكر اسم الاديب مصنف الجزء الاول من الكتاب : الاستاذ عماد عبد السلام رؤوف، فان الكتاب هو جهده ، والمنهج الذي ارتضاه في التصنيف والتعريف هو منهجه . وقد اتخذ المؤلف لمنهجه طريقا متميزا ، هو ذكر عنوان الكتاب بعد تحقيقه ومراجعته على صدر المخطوط او مقدمته ، او متن الكتاب نفسه ـ اذا كانت بعض اوراق المخطوط ساقطة ـ وتصحيحه اذا كان الغلط في العنوان قد تسرب اليه من وهم بعض الناسخين او المفهرسين. وتحقيق العنوان هنا عمل اقتضى من المؤلف جهدا ومراجعة ، ومقابلة بين مخطوطات ومطبوعات اخرى . وهو عمل لا يعرفه الا من كابده.

ويذكر المؤلف هنا اسم مؤلف المخطوط كاملا وتاريخ وفاته موثقا ذلك باوثق المصادر . كما يتبع ذلك بتعريف دقيق وجيز بمضمون المهم من تلك المخطوطات مع العناية بما لم يسبق نشره منها ، ويتلو ذلك بذكر جملة من اول المخطوط وآخره توكيدا للكتاب ومقابلة بما جاء في وصفه في معاجم الكتب . ولا يفوت صاحبنا ان يسجل ما على المخطوط من اجازات علمية ومطالعات ، واسم ناسخه وتاريخ النسخ ـ ان وجدا، والا فيقدر عمر المخطوط استنادا الى قرائن اخرى كالورق ونوع الخط والحبر ، كما يسجل ما على النسخة من وقفيات وتمليكات ، مع تخصيص المخطوطات النفيسة المتميزة ـ وخاصة في المصاحف والتفاسير ـ بوصف خاص يكشف عن قيمتها ، ويبين ما اشتملت عليه من تزاويق وزخارف ونقوش بديعة رائعة . وبالطبع لا يفوته ـ في معرض الوصف ـ عدد اوراق المخطوط وعدد السطور في كل صفحة منه ، وطوله وعرضه بالسنتيمتر . مع الاشارة الى ما لم يقدر له الطبع من تلك المخطوطات.

وقد التزم المؤلف ـ على مدار الكتاب كله ـ بهذا المنهج العلمي. ولعلي لاحظت عليه انه لم يحد عنه او يجانبه مرة . وذلك التزام يعلي من قيمة هذا العمل الجليل . واحمد الله ان هذا الكتاب كاد يسلم من اخطاء الطبع ، لولا ما جاء في ص ١١٩ من الاية الكريمة: (فمن يريد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام) ، وصوابها : فمن يرد الله . واذا كان هذا خطا في النسخة الخطية افما كان واجب مؤلفنا ان يصححه في الهامش ؟ وقد توج مؤلفنا عمله الجليل بمقدمة طويلة وافية تحدث فيها عن الشيخ عبد القادر الجيلاني ، وحياته، وآثاره ، وجامعه والتطورات التي مرت عليه الى اليوم ، وخزانة الكتب فيه ، كما تحدث عن خزائن الكتب المهمة التي انتقلت بعض كتبها الى مكتبة المدرسة القادرية بطريق الوقف والاهداء ، واخرها خزانة كتب الحسيب النسيب السيد يوسف العطا من آل عطا المشهورين في العراق ، وقد توفي سنة ١٣٧١هـ.

اذا كنت اهدي اصدق الشكر مرة الى السيدين المهدبين اياي هذا الكتاب ، فاني اهدي الثناء غير مرة ـ بل اهديه بلا عد ـ الى الاديب الاستاذ عماد عبد السلام رؤوف مصنف هذا الكتاب ، الذي اضمه ذخيرة ثمينة الى ما في مكتبتي من نفائس فهارس المخطوطات . والله يوفقه الى انجاز بقية اجزاء الكتاب .

٢ ـ مذكرات بلغارية

تاليف عيسى الناعوري ـ ١١٤ صفحة ـ قطع متوسط بالصور ـ منشورات دار فيلادلفيا ـ عمان

حمل الي هذا الكتاب من عمان ـ عاصمة الاردن ـ مع كتاب آخر عنوانه « حكايا جديدة » للمؤلف نفسه ، ولده الطالب بمعاهد مصر العالية. واذا كان اخي عيسى الناعوري يؤنسني دائما بذلك السيل المنهمر من انتاجه السري الثري ، فانه يؤنسني بولده الذي اجد فيه ملامح معنوية من ابنائي المفتربين ... وفي الوقت الذي كنت استقبل فيه بيد الشكر انتاج الناعوري من يد ولده العزيز ، كنت قد تلقيت من يومين بطاقة بريد جميلة من « المغرب » تحمل سطورا كريمة من الاخ الاديب الكبير . وكان البطاقة من المغرب ، وكتاب مذكرات بلغارية ـ الذي يصف بعض خواطر صديقنا عن بلغاريا ـ جاءتا في وقت متقارب ليؤكدا لي مدى اهتمام عيسى الناعوري بالرحلات والاسفار . فهو رجل اخو سفر ، جواب ارض . لا تتقاذف به فلوات ـ كما تقاذفت شاعرنا القديم وجعلته اشعث اغبر ـ بل تتقاذف به رياض وجنات من رياض ايطاليا ، وصقلية ، واسبانيا ، والمغرب، وبلغاريا ، وغيرها مما لا اعلمه من ثبت اسفاره . ومن الغريب ان عيسى الناعوري لم ينفتح على الاسفار من زمن قديم ، ولكنه خرج من قشرته لاول مرة

سنة ١٩٦٠ قاصدا ايطاليا ... ومنذ ذلك اليوم انطلق صاحبنا في الرحلات كصواريخ هذا الزمان ـ لا كسهام الزمن القديم ـ لا تصده بحار، ولا جبال ، ولا بحيرات ، ولا موانع مائية كقناة السويس مثلا!، ولا موانع غير مائية . بل هو كل عام في رحلة الى بلد اوروبي او غير اوربي ، لا يكاد يتوقف يوما عن المسير.

وعلى الرغم من تهيب عيسى الناعوري في اولى رحلاته ، حتى ليصف نفسه بانه كان كالقط الاعمى (رغم الاربعين من اعوامي حينذاك ـ يريد سنة ١٩٦٠ ـ فانه اليوم رجل عربي جريء مقتحم ، لا يتهيب ولا يخاف احدا . بل انا الذي خفت عليه حين قرات له في العام الماضي كتابه الممتع : « ليلة في القطار »، وخفت اكثر على رفيقته في القطار ، لانه لم يكن ذلك الصديق الهادىء الذي عرفته ، ولكنه كان رجلا مثيرا ، ومثارا الى ابعد الحدود ... حتى لقد كتبت اليه يومئذ اشفق عليه ، وعليه نحن القراء من عواطف ملتهبة حارة حادة عبر عنها في صراحة وجراة لم اكن اعرفهما فيه ...!

على كل حال ... قرات المذكرات البلغارية ، وكنت اخشى ان يكون فيها ما في « ليلة في القطار » من مغامرات ..! ولكني وجدت هنا رجلا هادئا ، واديبا عربيا مفكرا ، رزينا ، رصينا ، تستضيفه بلغاريا الادبية بثقافتها وكتابها ومسارحها ، فيقبل الضيافة في مايو سنة ١٩٧٣ ولا يرضى ان يخرج من هذه الرحلة الكريمة الخصيبة صفر اليدين ، بل يتحفنا ويتحف المكتبة العربية ، ويتحف ادب الرحلات فيها بهذا الكتاب الرشيق ، العميق ، الذي يحمل خفة روح ، ورجاحة فكر ، والذي يصور لنا بلغاريا الحديثة ، بجمالها الطبيعي من ناحية ، وبذخيرتها الادبية والفنية والفكرية من ناحية اخرى .

ولا يتوقف عيسى الناعوري عن ان يقودك دائما ـ وهو ماض في رحلته ـ الى مفارقات عجيبة ... فالكاتب البلغاري يستطيع ان يطبع من كتابه مابين ٢٠ الى ٥٠ الف نسخة في الطبعة الواحدة ، بينما نحن هنا في الشرق العربي يفرح الواحد منا اذا طبع من كتابه ثلاثة الاف... ويتساءل الناعوري لماذا لا يطبع الكاتب العربي البارز مثل هذه الكمية ـ على الاقل، وكاضعف الايمان ـ لمائة وثلاثين مليون عربي ؟ وليست العبرة بـ ١٣٠ مليون ، بل العبرة بالقراءة ... فهل هؤلاء الملايين من العرب يقرءون ؟ ان البلغاريين لا يزيدون على ثمانية ملايين ونصف، ولكنهم « شعب قارىء يحب الكتاب والمجلة والجريدة ، ولا يطيق فراقها ...» والمفارقات في هذا الكتاب غير قليلة ، كالعناية بالاطفال هناك ، ونصيبهم من الرعاية عندنا ... والاهتمام بالحدائق هناك، وارهاق الناس عندنا ـ مواطنين وغير مواطنين ـ بما لا يطاق من الامر..

ان هذا الكتاب في الحق لفتة كريمة من رحالة عربي كريم ، اتيح له في مدى اربعة عشر عاما ـ لا غير ـ ان يركب الى بلاد الله كل طريق . والرفق في ابداء وجوه المفارقات هو طابع الاستاذ عيسى الناعوري، الذي لا يعنف في النقد ، ولكنه يترفق ، لعله يبلغ الغاية مما يريد ان يوجه اليه ... وبالله التوفيق .

القاهرة — محمد عبد الغني حسن

•

شخصيات من الادب المعاصر

تاليف وحيد الدين بهاء الدين ـ (؟) صفحة ـ مطبعة (؟)

وحيد الدين بهاء الدين كاتب عراقي جاد دؤوب يتميز انتاجه بالصدق والاصالة ... وهو قلم جديد السمات والملامح ، شق طريقه بسرعة وعمق بين اعلام الادب المعاصر وهو حريص على تاصيل جذور الحرية والصراحة والوضوح وحريص على ان يقول الكلمة المنصفة في ابانها لا يعييه ان يقولها خالصة ، لا يشينها الملق ولا يشوبها الحقد..

وبكل الانصاف وبكل الاخلاص والصدق والجدية اختار لكتابة هذا مجموعة منوعة من الادباء والشعراء والباحثين والمحققين والمترجمين ممن اسهموا اسهاما جادا في بناء الشخصية الجديدة للادب العربي المعاصر وتاصيل مقوماتها الفكرية والثقافية وتجميع عناصرها من التراث الاصيل والتجديد البناء ..

شخصيات كان يبحث عن دورها الرائد والتوازن بين جموح التجديد المتطرف والمذهبية الملونة وبين التشبث بكل ما في القديم.. شخصيات متكاملة منوعة الثقافات والبيئات ولكن يوشج بينها اطار الجدية والاتزان والحرص على الاصالة والنهوض بكل قوى الامة العربية مجتمعة ..

شخصيات من انحاء الوطن العربي والمهاجر منها العالم والاديب والمحقق ، ولكنها تسير في تيار واحد وكانها تتجمع حول ميثاق تواعدت على انجازه بالامانة والايمان بالهدف والتبشير بالمبادىء والقيم النضالية الشريفة ... من بين هذه الشخصيات جورج صيدح الشاعر المغترب والدكتور حسين فوزي الطبيب العالم الموسيقي الباحث الرحالة سندباد العصر .. ومنها شفيق معلوف الشاعر المهجري ، صاحب ملحمة « عبقر» ووديع فلسطين سفير الادب المعاصر ومحمد عبد الغني حسن الشاعر والمحقق وهلال ناجي الاديب الدبلوماسي ومحمود ابو الوفا الشاعر المفكر وناجي جواد الكاتب الانسان وابراهيم نجا الشاعر الرومانسي الواقعي والدكتور حسين مجيب المصري الباحث والشاعر العربي التركي الفارسي ...

وحينما يستفتح المؤلف مجموعته بالشاعر جورج صيدح تتمثل لنا صورة الشاعر السوري المهجري صيدح ، الذي جاب العالم مبشرا بمبادىء العروبة المناضلة ، باذلا من فنه وفكره وخزائنه الكثير ... الكثير مكونا بشخصه جبهة تتحدى الصهيونية في كل مكان ويمسك بقلمه الخلاق يرسم للادب المهجري شخصيته الاصيلة في موسوعته الكبرى

« ادبنا وادباؤنا في المهاجر الامريكية » ..

ومع ان المؤلف يلم بهذه الجوانب في حياة جورج صيدح الا انه يلقي اضواء على شخصيته الشاعرة ذات الاصالة الفنية النابعة من حسه المرهف ومن تجاربه الشعورية الحادة والخصبة التي تغذتها رحلاته وولاؤه لعروبته ووطنه ...

فمن التجارب الشعورية يختار له المؤلف هذه النبضة الفنية التي يمتزج فيها الحنين الى الوطن بعبير الذكرى المشتاقة اللهيفة :

يقطر الليل نجوى من سرائرنا   ويشرب الفجر معنى من تحايانا
ان طالعتنا وجوه الحسن في بلد   توسم القلب فيها وجه لبنانا
وكم شخصنا الى الافاق نسبرها   لعل فيها عيون الصحب تلقانا
وكم عطفنا على الاطيار في لهف   نملي عليها حديث الشوق الجانا

ومنها تلك اللمسة الانسانية الرائعة التي تصور الضعف الانساني ممثلا في ضعف الابوة بازاء الام البنوة باروع ما اوتي الانسان الفنان من الهام وقد اصبحت هذه الكلمات في دفتر الشعر العربي المعاصر كبصمة الابهام لا تتكرر خطوطها الا عند جورج صيدح .. نفسه .

لقد كانت وحيدته تحت مبضع الجراح وكان هو خارج غرفة العمليات يتململ عن هذه النبضة الرائعة :

رفقا بها يا مبضع الجراح   شرحت قلب الوالد الملتاح
ان زدت ايلاما فضحت تجلدي   وجمعت بين صياحها وصياحي
والله لو اطلمت روحي لارتمت   تحت النصال تصدها بجراحي
هذي القطاة قصاصة من ريشها   تكفي اذا انتثرت لقص جناحي
ماذا جفت وهي الفطيمة في الربا   حتى تذوق خثارة الاقداح
بالامس مدت عنقها من وكنها   واليوم تشهد مدية الذباح

ومن الوطنيات اختار المؤلف من شعر صيدح :

قالوا: صف الاوطان قلت: حبيبة   لا اشتهي بعد القطيعة وصلها
وقد كان همي ان اعيش بقربها   واليوم همي ان اموت فدى لها

وعن العروبة يضع مبادئها الكريمة في هذا القانون :

ان العروبة شرع   فيه الوفاء تحتم
لم ينتهز عربي   قعن الزمان باعجم
يحنو على ظالميه   متى اصيبوا باظلم

ولا ينوح صيدح على مآسي الوطن العربي لكنه يندمج فيها اندماج الجزء في الكل :

وطني المنكوب ان تحصى الضحايا   احصني اني جريح في حشايا
لست ارثيك بترديد الشكايا   بل اهاديك سلاحا وسرايا
خذ عن المدفع دفعا للرزايا   لغة المستعمرين الاعجميه
ان حفظناها حفظنا الضاد حيه

وشخصية وديع فلسطين الذي عرفه المؤلف بانه سفير الادب المعاصر ـ شخصية نادرة في عالم اليوم ، تجمع من المتناقضات اكثر مما تجمع من التوافقات فهو يجمع في شخصه كل عناصر التقدمية ولكنه يرفض التجديد المتطرف ويرفض الالتزام في الادب ويرفض تجديد الشعر ... وهو ذو ثقافة اجنبية عميقة وواسع الاطلاع، على كل معطيات الفكر الاوربي ولكنه يدافع عن العربية الفصحى الاصيلة ويبتكر في الفاظها ومعانيها وصورها ومعجمها وعباراتها تجديدا يعز على فقهائها ..

وهو عاطفي يذوب قلمه رقة ولكنه يلتزم في كل ما يكتب بالنزعة العلمية المعاصرة ويخضع كل فكرة لمنطق العلم الحديث .. وهو معتز اشد الاعتزاز بشخصه وافكاره وارائه لكنه متواضع الى اقصى حدود التواضع ، حتى بالنسبة لاشد مخالفيه في الرأي ، مجامل خدوم لكل الناس حتى من لا يعرفه . وهو خجول عزوف عن الشهرة يعتزل المجالس والمؤتمرات لكنه جريء جهير الصوت يلقي بالكلمة الحاسمة في وجه التكتلات مهما يكن حجمها ومهما تكن قوتها .. وهو انيق رقيق ناعم الملمس والمخبر ، طيع لتقاليد مجتمعه لكنه متمرد على كل سلطة تسيرها الاهواء والنزعات اللاانسانية ..

شخصية بكل ما في الانسان من نبل وما فيه من ضعف .. الا انها شخصية لا تنجرف مع التيار بقدر ما تدفعه ، تجيد تحريك ما حولها بدون ضجيج او افتعال ، احسن ما فيها انها خلاقة اكثر منها منفعلة.

ولقد تناول وحيد الدين بهاء الدين مؤلف هذا الكتاب شخصية وديع فلسطين من زاوية السفارة بين الادباء وهي ناحية انسانية واصيلة في وديع لا يفتعلها ولا يبغي من ورائها اهدافا ابعد من مجرد خدمة الادب والادباء بما في طبعه من شهامة ومودة وسماحة ..

ومن هذه الزاوية الم المؤلف بمكنونات هذه الشخصية وهي تبني قضايا الفكر المعاصر ونزاهة العمل الصحفي وصداقة كبار العلماء والادباء والمفكرين في العالم والتعمق في الاطلاع على آثار الفكر الغربي، والحرص على نقل روائعه الى العربية مما جعل وديع فلسطين صاحب مذهب متميز في كل ما يكتب وما يترجم .

ومن الشخصيات التي اضاءت بها صفحات هذا الكتاب شخصية الكاتب الشاعر المحقق محمد عبد الغني حسن ..وعبد الغني حسن قوة ديناميكية في بناء الادب العربي المعاصر ومعلم من معالم الشعر والنقد المتجددين وموسوعة من موسوعات الثقافة العربية يضيف الى الفكر العربي ما يضفي عليه الخصوبة والازدهار والتفوق ،الى جانب سرعة انطباعه بالاحداث وسرعة استجابة شعره لهذه الاحداث ..لقد ملأ عصره علما ومعرفة وسار في الطلائع الاولى لاحياء التراث وبعث اروع ما فيه حتى اصبح على اعلى مستويات الخبرة بدقائق التراث العربي .وهو مشارك دائم في تحرير كل الصحف الممتازة يرتاد المجالس ويشهد المحافل ويشارك في المؤتمرات وله فيها الصوت الجهير دائما باحثا ودارسا ومناقشا وشاعرا.. وهو قارىء مستوعب لمسار الفكر المعاصر لا تفوته شاردة ولا واردة مما ينشر او يذاع او يتردد في المحيط العربي الاوسع ..

وفي حياة عبد الغني حسن مواقف مشرفة ومبادرات مخلصة هيأه لها عمله في مختلف اجهزة الثقافة ،ولقد وهب قلمه وجهده واخلاصه العروبة منذ بكرة حياته ولا يزال يمنحها من عصارة فكره وتجاربه وهي غزيرة وعميقة ومتنوعة ...

وحياة عبد الغني حسن جزء من تاريخ الفكر العربي المعاصر ولذا فهي جديرة باهتمام الباحثين ومؤرخي هذه المرحلة من حياة الادب والفكر والثقافة ..

والجانب الذي اختاره وحيد الدين بهاء الدين مؤلف هذا الكتاب من جوانب نشاط عبد الغني حسن هو الجانب السهل الاقل معاناة في حياته اذ هو جانب الطبع الفياض المتدفق في حياته ،اما الجوانب الاخرى فهي اخلاص وبذل وتضحية لوجه الامةالعربية ولوجه الفترةالمناضلة فيتاريخها.

اما محمود ابو الوفا ـ الشاعر المفكر ـ فاعتقد ان الكتابة عنه ضريبة مفروضة على كل قلم ناقد او مؤرخ لان ما بذله في تجديد الشعر وما لقيه من جحود وما تعرض له من عنت في حياته الفنية والعامة يجعل منه شهيدا حيا يصلي من اجله كل كاتب ذي ضمير حي ...

واذا كان بعض شخصيات هذا الكتاب قد نالت بعض الحظ من الشهرة والصيت مثل الدكتور حسين فوزي الذي لمع في علوم البحار وفي الموسيقى وفي الرحلات العلمية وفي مناصب الدولة العلياء ، وهلال ناجي الذي عرفته الاوساط السياسية مناضلا حرا ودبلوماسيا بارعا والدكتور حسين مجيب المصري الذي عرفته الجامعات استاذا وعرفته الصحف ودور النشر مؤلفا وشاعرا ومحققا في ميدان اللغات الشرقية .. فان الشخصيات التي عرضت لها بشيء من التفصيل قدجحدت جحودا لا يحسن السكوت عليه .

وبعد فان حديث وحيد الدين بهاء الدين عن هذه الشخصياتجميل اسداه الى القارىء العربي اذ عرفه على شخصيات ان يكن قد عرفها من خلال انتاجها فلم يكن في استطاعته ان يصل من تلقاء نفسه الى هذا التحليل المستوعب لهذه الشخصيات او تفسير انتاجها في ضوء البحث العلمي الجاد وفي هذا الكتاب الممتع .

لقد بقي الكثير من هذه الشخصيات في الظل امدا اطول مما يصبر عليه القارىء ، واكثر مما يصمت عنه التاريخ .. ولقد بذل المؤلف جهدا مشكورا لكي يجمع هذه الباقة ويضعها في هذا الاطار التحليليالمستوعب، كما استطاع ان يلتقط العنصر الاصيل في كل شخصية ويضعها سمة مميزة لا تخطىء صاحبها ولا تتكرر لدى غيره من الاشخاص ..

ولقد برزت لنا من خلال هذا الكتاب ملامح وسمات المؤلفه ككاتب تراجم من طراز ممتاز ..

فهذا الكتاب يحمل طابع الابتكار في مجال يندر فيه الابتكار .. ومعالجة الكاتب لموضوعه تنم عن مقدرة اصيلة وتمكن واسع من فن ... واختيار الكاتب لهذه الشخصيات بالذات يحمل عنصر الانصاف وينبىء عن مقدرة واعتداد وجراة .. وبهذا وذاك ادى وحيد الدين بهاء الدين خدمة مشكورة ومذكورة لهذا الجيل من القراء والكتاب والدارسين..

وبهذا الكتاب وضع وحيد الدين بهاء الدين قلمه في موضع المسؤولية عن جولة جديدة ينصف بها كثيرا من الكتاب والشعراء والباحثين والدارسين من اصحاب الجهود المغبونة ويضعهم في الاطار الصحيح من صورة الفكر المعاصر وكثير منهم تحملوا اعباء البناء وهي شاقة ومضنية وجديرة بحنو هذا القلم الرصين : قلم وحيد الدين بهاء الدين ..

القاهرة رضوان ابراهيم

•

اضواء على الادب والحياة

تاليف ابراهيم المصري ـ ١٧٠ صفحة ـ طبع دار الهلال بالقاهرة

يحرص الكاتب الكبير الاستاذ ابراهيم المصري على الوضوح والدقة والتركيز في كل ما يسطره قلمه . ولعل هذه المزايا على ما تقتضيه من جهد ومشقة ،هي التي يسرت له ان يتناول في الكتاب الواحد ،عديدا من المسائل والموضوعات ،يكتفي في بحثها بنقاطها الجوهرية ،متجنباشتى التفاصيل التي قد لا تمت الى الجوهر بصلة .بل انه يشير في كثير من الاحيان الى بعض تلك التفاصيل اشارات محكمة بارعة تلم باطرافها جميعا ولا يدركها الا من له اهتمام جاد بموضوعها ،دون ان تقطع على غيره سبيل النظر والتصبر والمعرفة .

اما تلك الخواطر الطريفة والكلمات الجامعة التي يحرص الاستاذ كذلك على جمعها وترتيبها في مقالاته وكتبه ،فان لها دون شك وزنها وقيمتها .ذلك لان تلك الخواطر والكلمات الجامعة ليست وليدة انفعال سطحي ، ولا هي مما يرتجله المتحدث ارتجالا وقد يعدل عنه مع الروية وامعان النظر .على العكس من هذا تماما يحس قارىء ابراهيم المصري انه يصدر فيما يصدره من تلك الخواطر والكلمات عن اقتناع كامل وايمان وثيق بعد المعاناة الشديدة والتجربة العميقة والاحاطة الشاملة او شبه الشاملة بجوانب الفكرة التي تحتويها الخاطرة او الكلمة.وسواء اتفقت تجاربنا وتجارب الكاتب او اختلفت عنها ،فان احساسنا بصدقه مع نفسه وشجاعته في اعلان افكاره ومبادئه ،هذا الاحساس لا ينفكيخامر نفوسنا وضمائرنا ويملؤنا اعجابا بالرجل وقدرا له وثقة فيه .

وامامنا الان احدث مؤلفاته وهو كتاب «اضواء على الادب والحياة». وقد ضم هذا الكتاب خلاصة ممتعة من آراء الكاتب وملاحظاته حولالكثير من المسائل ذات الصبغة الادبية الخالصة ،والاخلاقية والاجتماعية .وقد عني المؤلف في كتابه ايضا بان يشركنا في بعض مطالعاته في الادب الاوروبي مضيفا اليها نماذج من مطالعاته العربية .

واود هنا ان استعرض مع القارىء طائفة من المسائل التي عرض لها الاستاذ ابراهيم المصري في كتابه الشائق .واجدرها بالبيان رايه حول « الحرية في الادب » .فتحت هذا العنوان كتب يقول : « لا يعيش الادب

وينمو ويؤتى ثماره الرائعة الا في جو من الحرية . ولا قيمة للادب الا اذا كان حرا لا تكبله اية قيود . والادب الحر يعود على المجتمع باضعاف الفائدة التي يعود بها عليه الادب الملتزم بغاية عملية مباشرة تهدف الى الاصلاح ،او تدعو الى نظام اجتماعي او مذهب فلسفي .ذلك لان الادب ليس منبرا للدعاية والاصلاح والارشاد .مجال الدعاية والاصلاح هو المقال .اما القصة او المسرحية او الشعر فهي الادب الخالص الذي يجب ان يكون حرا طليقا يسبح في اي الاجواء شاء » .

وانت ترى مما نقلناه هنا عن الاستاذ ابراهيم المصري ،انه يرفض الادب الملتزم .وهو بعد ذلك يؤيد منزعه ببعض الشواهد يستمدها مما في وسعنا ان نستفيده من مطالعة الروائع الخالدة لامثال شكسبير وبلزاك ودستويفسكي وغيرهم من عباقرة الادب الحر .وقضية الالتزام في الادب او تركه حرا كثر الجدل فيها حينا ثم فترت حدة هذا الجدل وثاب الادباء في تلك القضية ـ على ما يخيل لي ـ الى موقف وسط يرى ان الشرط الاول والاخير لجودة العمل الفني ،هو الصدق مقترنا بتلك الحاسة العليا التي بواسطتها يستطيع الاديب او الفنان، ايا كان اتجاهه، ملتزما او غير ملتزم ،ان يعكس لنا في عمله حركة الحياة في تطورها الدائم وتقدمها المطرد .وهذا راي يقبل النقد بالطبع .

وشبيه بتلك القضية ،قضية « الفلسفة في الادب » .وقد عرض لها الاستاذ ابراهيم المصري في كتابه .فكتب تحت العنوان المتقدم يقول : « من القصصيين وكتاب المسرح في اوروبا اليوم ،من ينزع الى ادماج الفلسفة في الادب .فقصص ومسرحيات اولئك الكتاب لا تكتفي بتصوير مشاعر القلب وخلجات الوجدان والنفس ،بل يجنح ابطالها الى الفكر والتامل ،اي الى معرفة معنى الالم ومعنى الحياة ،والغاية من الالم والغاية من الحياة» ثم ينحى باللوم الشديد على الاتجاهات الادبية التي يمثلها سارتر وكامو وبيكيت ويونسكو واضرابهم .ويذكر ان الخطر الناشىء من مطالعة اعمالهم كامن في ان هذه الاعمال قامت اساسا على فلسفة عدمية ترى ان الوجود هو العدم .« فما دام ان العدم هو في نظر اولئك الادباء نسيج الحياة وقانونها الاول والاخير » فكيف يامن قارىء هذا الادب المفلسف برغم ما فيه من اشادة بالقوة والحرية وتمجيد الحياة ،كيف يامن هذا القارىء ان يتحول بجمع كيانه يوما وتحت تاثير هذا الادب الى كراهية الحياة نفسها .فيندفع الى الانتحار .او ينصرف الى انتهاب الملذات في انانية مستهترة وقاسية ...

والاستاذ ابراهيم المصري عدو السرعة ،يراها اخطر شيء على الادب خاصة .فيكتب تحت عنوان « الادب وعصر السرعة » قائلا : «ان عصر السرعة الذي نعيش فيه اليوم يضع الادب الغربي بل والاداب العالمية باسرها في ازمة خطيرة» .ثم يوضح اعراض تلك الازمة كما يلاحظها على بعض الاعمال الادبية الحديثة .ويضرب المثل بالاديبة الفرنسية « فرانسواز ساجان » فيقول عنها « انها حين اصدرت قصتها الاولى « مرحبا ايها الحزن » وهي عمل فني ممتاز قوبل من النقاد بتقدير كبير ، ذاعت شهرة الروائية الشابة ،فتهافت عليها الناشرون ،وتهافتت عليها ايضا شركات السينما ،تحثها على كتابة قصص اخرى .فجعلت فرانسواز ساجان تضع القصة تلو القصة في سرعة وارتجال ، الامر الذي باعد الشقة بين عملها الاول واعمالها التالية ،وهوى بادبها الذي كان يمكن ان يظل رفيعا ،الى مستوى الادب السهل الرخيص » .

ثم يتجه الاستاذ ابراهيم المصري الينا ،الى ما يعتقده بعض شعرائنا من ان الشعر هبة تستغني عن الثقافة .فيكتب تحت عنوان « ثقافة الشاعر » كلمة ضافية ينقد فيها هذا المعتقد .ففي رايه ان الملكات والمواهب فطرية ولا شك .ولكن الفطرة ،كائنا ما كان توقدها ، فهي مادة اولية في حاجة الى التفتح والتجمع حول مؤثرات تنبع من الواقع المتجدد الماثل في مختلف تطورات الحياة » وهي عبارة جامعة يستطرد بعدها الى الجانب الاخر من دعوى من ينكرون ضرورة الثقافة للشاعر .فيقول « اما الخوف من ان يطغى سلطان الثقافة العقلي على سلطان العاطفة والخيال في نفس الشاعر ،فتعليل لا ينهض على اساس . اذ الشاعر المطبوع هو الذي يعتصر خلاصة التفكير العقلي ويصبها في مجرى العاطفة والخيال صبا طبيعيا لا اعنات فيه ولا تكلف ،ولا اثر من سيطرة العقل المثقف عليه، والا كان شاعرا زائفا ، اوشاعرا مغلولا الى فطرته المحدودة ،لا يستطيع ان ينفذ بشعره الى جوهر الانسان وحقائق الحياة الابدية » .ثم يتطرق الاستاذ ابراهيم المصري بالحديث في الكلمة نفسها ،الى شعرائنا اصحاب التحرر من القديم اطلاقا ،وتاثرهم في ثقافتهم بمذاهب اوروبية مستحدثة في الشعر ،واتجاههم في شعرهم الى هدم كل ما هو منطقي ،والذهاب في التصور والتصوير الى ما يكمن وراء العقل الواعي » فيخاطبهم في عبارة متزنة وهادئة « هذه منكم محاولة نود مخلصين ان نقدرها ،وان نتذوقها ،على شرط ان نجد انفسنا حيال اشياء خليقة بالتذوق والتقدير ،لا حيال اشياء مبهمة وغامضة ومحفوفة بالالغاز والاحاجي ،تلقى بنا في شتى المتاهات ولا نخرج منها الا متخبطين وتائهين وحيارى » .

هذه فيما اعتقد ابرز المسائل التي عرض لها المؤلف في القسم الاول من كتابه الشائق .وهو القسم المعنون بـ « اضواء على الادب » .وبقي قسمه الثاني « اضواء على الحياة » .وهذا القسم يقدم لنا الوانا متفرقة من الخواطر او الافكار المجنحة التي تنطلق قريبا ،وتنطلق بعيدا ،وتدور دائما حول الاغراض الانسانية العالية والمطالب الروحية السامية التي ما يفتا الاستاذ ابراهيم المصري يحث قارئه على التنبه لها والسعي اليها والتشبث بها .واليك امثلة من تلك الخواطر : « احلام الشباب آمال، اما احلام الشيوخ فمجرد ذكريات .والذكرى جميلة ولا ريب جمال مغرب النهار ،اما الامل فرائع روعة التربص والتحفز وانتظار مطلع الفجر ـ البر اتقى صلاة لانه يخصب الخير في ساعته ـ المرونة في الفكر باب يؤدي الى التفاهم والتسامح والتعاطف بين الناس ،اما المرونة في الضمير فباب يؤدي الى الخبث واللؤم والوصولية ومنها كل رذيلة .بل الى الاجرام » .

وثمة ايضا في هذا القسم من الكتاب فقرات فيها بعض الطول بحيث لا يسوغ اعتبارها خواطر ،فهي اشبه بان تكون نظرات مباشرة الى بعض المسائل التي يريد الكاتب ان يتوسع في عرضها .والى القارىء نموذجا واحدا منها .تحت عنوان « اهدافنا ... » يقول : « حياتنا تنحل كل يوم امام عيوننا وتنقضي في مطالب ومشتهيات تنفجر من غرائزنا وكثيرا ما تنحط بنا .

فقوتنا في ان نقاوم هذا التحلل اليومي في ان نجد هدفا ساميا لحياتنا في ان نتشبث بهذا الهدف ما استطعنا ،بحيث لا تثنينا عنه اية خيبة تحل بنا .اذ الخيبة هي رمز التقلب الذي هو طبيعة الحياة ،والثبات هو رمز الارادة البشرية التي تغالب الحياة ،وتغالب الخيبة والحسرة ، وترتد الى الهدف حتى تحققه ، او تستجمع قواها لو استحال تحقيقه، وتتجه في عزم واصرار نحو هدف نبيل جديد » .

واما الباب الاخير فيحتوي على اربع قصص مستلهمة من واقع حياتنا ومن احداث التاريخ. وقد ابدع المؤلف في وضعها ابداعا ارتد به الى فطرته الفنية الخلاقة ولا سيما في القصة العصرية « ملكة النحل » التي تجمع الى نبل الفكرة ،دقة الملاحظة ،وصدق العاطفة ،وقوة التصور وروعة الوصف والتحليل .

وصفوة القول ان كتاب « أضواء على الادب والحياة » هو عمل ادبي شائق وممتاز .وقد صدر بعد الكتاب الرائع « خبز الاقوياء » ببضعة اشهر فقط .وفي هذا ما يدل ابلغ الدلالة على ان ذهن الاستاذ ابراهيم المصري ما يزال ،رغم تقدم الرجل في السن ،ذهنا جياشا بالحيوية ، فياضا بارادة العمل والخلق والابتكار .

طنطا ـ مصر

ابراهيم سعد الجندي